اندريه جدانوف

•

إنّ الأدب كان مسؤولاً

•

قدّم له : هاشم الأمين

عرّبه : رئيف خوري

•

دار القاري العربي
بيروت ١٩٤٨

اندريه جدانوف

•

إنّ الأدب كان مسؤولاً *

•

قدّم له : هاشم الأميّن

عرّبه : رئيف خوري

•

دار القاري العربي
بيروت ١٩٤٨

---

* صدر هذا الفصل بالانكليزية سنة ١٩٤٧ في مجلة « ووكس » السوفياتية عدد ٥١، بعنوان : تقرير عن المجلتين « زفيزدا » و«لينغراد». وقد نقل الى العربية عن هذا النص .

اندریه جدانوف

۱۸۹۶ – ۱۹٤۸

مقدمـــة

بقلم : هاشم الامين

●

في العام ١٩٤٦ اتخذ قرار بعزل الاديبين اللينينغراديين ، الكاتب « زوتشنكو » والشاعرة « آنا أخماتوفا » ، عن اتحاد الكتاب السوفيات ، واغلاق جريدة « لينينغراد » ، وتوجيه اللوم الى جريـــدة « زفيزدا » ، والى الفرع اللينينغرادي من اتحاد الكتاب السوفيات .

وقد القى اندريه جدانوف ،سكرتير الحزب البولشفيك، تقريرين اثنين عن هـذه القضية ، احدهما في مؤتمر من اعضاء الحزب اللينينغراديين ، والثـــاني في مؤتمر من الكتاب اللينينغراديين . وخلاصة هذين التقريرين هي ما يلي هذه المقدمة من هذا الكتاب ، مشتملة على وجهة النظر السوفياتية الى الادب ، وموضحة بصورة لامزيد عليها اسس الادب السوفياتي واتجاهاته .

يمكن اجمال ما أخذ على ذينك الاديبين بانحرافهما عن الواقعية الاشتراكية ، انحرافاً هو ، في النتيجة ، تضليل عن الاشتراكية وتثبيط عنها ، واغراء بالتفسخ البرجوازي .

ولسنا ننسى هنا السؤال البدهي الذي لا بد ان يلقى : أليس في هذا حد من حرية الادب وآفاقه ؟ وبالنتيجة ، أليس في هـذا تضييق على حرية الفكر من حيث هي ؟ الا يصبح الادب معه رهناً بالسياسة ، ووقفاً على الحزبية ؟ وللجواب على هذا السؤال لا بد من القول ان وضعه على هذا الشكل لا يؤدي في الحقيقة الى نتيجة . فصحيح ان الكتاب السوفيات وصفوا جدانوف بانه « كان يرى أثمن صفة في الفنان السوفياتي حزبيته البلشفية » . فجدانوف يقول : « لا يخشى أدبنـا السوفياتي ان يتهم بالتحيز . اجل ، متحيز هو الادب السوفياتي » . لكن ، مع هذا ، يجب ان يكون النفوذ ، بصورة موضوعيـة ، الى صميم المسألة من خلال هـذا السؤال ، لا سواه : هل يكون الادب ، او بالاحرى هل يمكن ان يكون الادب — اطلاقاً من حيث هو — محايداً ؟ يقول جدانوف : « في عصر الصراع الطبقي لا يكون ، ويستحيل ان يكون ، أدب فوق الطبقات — أدب صفر من التحيز ، أدب زعم أن لا مغزى سياسي

له » . فأما الداعون الى نظرية « الفن لذات الفن » فما اشبههم بالداعين ، بين السياسيين ، الى تأليف « القوة الدولية الثالثة » — يريدون تثليث القوى حيث لامجال ، ولا يمكن ان يكون مجال ، لغير قوتين اثنتين لا ثالثة لهما : اما تقدم واما رجعة ! فلن تكون ، اذن ، هذه « القوة الثالثة » — ما دامت غير قائمة في صف التقدم — غير احتياطي للقوة الرجعية . لئن اعترف الداعون الى نظرية « الفن لذات الفن » — ولا بد لهم ان يعترفوا — بأن الفن هو حتما فاعل ومنفعل ، كان عليهم ان يعترفوا بأن لا حياد في الفن . الادب النامي في رعاية البرجوازية — ليكن رمزاً او رومانطيق احلام او ما يدعونه وجودياً ، او اي شيء آخر — هو ادب متحيز للبرجوازية . وبالنتيجة : حزبي جوهراً ان لم يكن شكلاً ، وهو على الاصول البرجوازية ينبت ويستوي ، وعلى ارادة شركات النشر الاحتكارية يتوقف طبعه ونشره وحياته . فأي غرابة اذن ان يكون ادب البروليتاريا حزبياً متحيزاً للبروليتاريا ، وهو على اصولها ينبت ويستوي ، وفي سياق حياتها يطبع وينشر ويعيش . بل كيف يمكن ان يكون ادب البروليتاريا

غير ادب بروليتاري ؟

على هذا الاساس تقوم النظرة الحزبية السوفياتيـة الى الادب : ليست القضية قضية فن مجرد وفن متحيز . كل فنان متحيز شاء أم لم يشأ ، وعى ام لم يع ! الا أن الفنان السوفياتي يتحيز وهو يعلم انه يتحيز ، ويقصد الى ان يتحيز . وغيره قد يعلم انه يتحيز وقد يقصد الى ان يتحيز ، وقد لا يعلم ولا يقصد ، ولكنه متحيز على كل حال — متحيز من حيث يدري او من حيث لا يدري . فالفن المجرد لا وجود له . لا بـد للفن من باعث عليه ، ولا بد له من أثر — من غاية . ومن هنا كان الادب غير معفىً من المسؤولية . ومن هنا كانت المسألة ، وحسب : الى أيٍ يجب ان ينحاز الاديب ؟ وكان وجه المفاضلة : في أي مكان يشرّف أديب ادبه ؟ في أي مكان ، اذ يضع الاديب أدبه ، يكون وافياً أميناً لرسالة الادب ، التي هي حافز على التقدم ؟ يقول جدانوف : « عقيدتي ان كل سوفياتي من أهل الادب يستطيع ان ينبىء كل سمج بليد برجوازي ، كل متفاصح متحذلق كل كاتب برجوازي يتحدث عن تحيز ادبنا : اجل ، هوذاك : ادبنا السوفياتي متحيز — ولنا الفخر —

لان تحـيزنا ينحصر في مسعانا لتحرير الشعب العامل ، تحرير البشرية جمعاء من نير عبـودية رأس المال » . ويقول الاديب « دوبروليوبوف » ، احد رواد الاشتراكية الاوَل : « ان الادب هو الذي يتكيف بسياق الحياة وليست الحياة هي التي تمتثل للمقاييس الادبية » .

فالمبدأ السوفياتي ، اذن ، يعتبر الاديب غير حر في ان يرتفع ببرج عاجي عن واقع الشعب — عن آلامه وآماله . غير حر في أن يتجاهل وان يجهّل . غير حر في ان يخدر الشعب عن آلامه ويضلله عن مقاصده . غـير حر في ان يغري بالخلاعة ويروج للمجون . غير حر في نشر القنوط والاغراء بالاستسلام الى الظلم والاستبداد . يعتبر المبدأ السوفياتي في الادب ان من حق المجتمع ان يحاسب الاديب على ما يقدم اليه ، كما يكون من حقه ان يحاسب اي عضو آخر او هيـأة أخرى من اعضائه وهيآته ، بل ان الحساب على الاديب يجب ان يكون اقسى وأشد ، لانه يتولى هندسة فكر وتغذية روح . ويقول جدانوف بهذا الصدد : « يعتقد بعض الناس ان اتخاذ اللجنة المركزية مثل هذه التدابير المشددة ازاء الادب انما هـو امر غريب . ونحن لم نتعود مثل هذا الامر . فساعة يؤذن بوقوع الخطأ في

الانتاج الصناعي أو ساعة لا يكتمل معدل الانتاج المقرر في البضائع المستهلكة ، او ساعة ينقص مقدار الخشب المنصوص عليه في المشروع ، فنحن نعتبر طبيعياً ان ينال المسؤولون جزاءهم من التوبيخ العلني . لكن عندما يؤذن بوقوع الخطأ فيما يتعلق بالتأثير في الارواح البشرية التأثير الصالح ، عندما يؤذن بوقوع الخطأ فيما يتعلق بتنشئة شبيبتنا ، فهذا خطأ يمكن التساهل فيه . ومع ذلك ، أليست هذه الكأس أمرّ على الجرع من نقص في مقدار انتاج أو من قصور عن اتمام واجب من واجبات الانتاج ؟ ان الهدف المراد من قرار اللجنة المركزية انما هو تقديم جبهة الفكر بحيث تصبح على خط يتوازى وسائر جبهات عملنا » .

وفي صراع بين حق وباطل ، بين تقدم ورجعة ، يعتبر المبدأ السوفياتي ان لا مفر للاديب من تعيين موقفه . لا بد له — سواء قصد أم لم يقصد — من ان يكون اما مع الحق واما مع الباطل ، اما مع التقدم واما مع الرجعة . من لم يكن مع الحق فهو حتما متخل عنه ، ومن لا يتقدم فهو حتما متراجع . « المكان الوسط » هو اذن ناحية من نواحي « الجانب

الآخر » ، هو « وجود » ليس له وجود مستقل .

فمن الطبيعي ، على هذا ، ان تكون صفة الادب السوفياتي هي صفة الواقعية — الواقعية الاشتراكية . وان يكون مرتبطاً ، وحسب ، بمناهجها وتطورها ، وبوقائعها وبطولاتها ، وانتصاراتها وأهدافها — ان يكون مرتبطاً بالشعب ، وللشعب .

تلك هي صفة من صفات الواقعية الاشتراكية التي يبنى عليها الادب السوفياتي ، وفي حدودها يعمل . والاشتراكية واقع تتحقق فيه مثل الانسانية العليا التي طالما حلمت بها منذ قديم الاجيال . انه واقع اصبح الانسان فيه هو رأس المال الاثمن ، بعد ان كان هذا الانسان ، جسمه وفكره وكرامته وعرضه ، رقاً مباحاً لهذه المادة الصماء — لهذا الصنم المؤله ، لهذا الذهب المعصور من الجباه والمآقي والقلوب ، عرقاً ودمعاً ودماً ، والمتجمع في صناديق قبضة من طغاة الرأسماليين والاقطاعيين ، باثاً في قصورهم التخمة والعهر والعبث والعربدة والسأم الصالوني ، مخلفاً وراءه ، في ملايين الأكواخ ، الحرمان والجوع والمرض والجهل والتعب والبطالة . انه واقع حل فيه التعاون والاخاء الانساني

محل استثمار الانسان للانسان واستعباد الانسان للانسان ، فزال منه التناحر الطبقي الاجتماعي ، واصبح الشعب كله جبهة واحدة متكاتفة تتقـــدم وتصعد وتبدع ، وتضافرت القوى على تسخير الطبيعة – وذهبها – للانسان ، لخدمته . ووضعت كل امكانيات العلم تحت تصرف كل الشعب . فمن الطبيعي ، اذن ، ان يخلق هذا المجتمع الجديـد قيما أخلاقية جديدة ، قوامها الجـد والتفاؤل والاخاء والقوة والعمل – قوامها حياة شابة جـــادة متوثبة ، معافاة من الغل الفردي والقنوط والتخنث والاستهتار . ومن الطبيعي ، والادب شق هام من هذه الجبهة الضخمة الجبارة المتراصة ، أن يتسم الادب السوفياتي بالجـد والرصانة والحشمة والتفاؤل ، ويزري بالانطوائية المبنية عـــلى النزعات الفردية والحقـد على الحياة ، والنزوات الحيوانية ، والتطرح في تيـه التصوف . وان يخلو من الحض على الاحسان والصدقة – حين خلا ذلك الواقع الاشتراكي من الاساس الذي يدعو الى الاحسان والتصدق – ومن الشذوذ والتبذل والكآبة والقنوط والوحشة والتبرم بالحياة . واذن ، فلئن كانت « حرية الرأي والفكر » ، مقصودة من

أجل توطيد القيم الانسانية العليا ، فهنا ، وحسب ، مجالها – في هذا الواقع الذي يتصفى ابداً من الشوائب والعقد الاجتماعية ، وتتبلور فيه ابداً تلك القيم حقائق تاريخية . وان كانت « حرية الرأي والفكر » مقصودة لغير هذا ، فما أبعدها عن ان تكون وسيلة لتأدية رسالة الفكر الصحيح – رسالة التقدم . وما أجدر المتشدقين بها أن يكونوا – وعوا ام لم يعوا – هم والداعون الى حرية الاجرام والتخريب سواء !

على أننا حين نخص واقعية الادب السوفياتي بـ « الاشتراكية » انما نخرجها في الحقيقة عن مفهوم الواقعية المطلقة ، تلك التي تصور الاشياء – سلباً وايجاباً – تصويراً طبيعياً ، أو « تصويراً فوتوغرافياً » كما يقول الكسندر فاديف ، الامين العام لاتحاد الكتاب السوفيات . فالمجتمع الاشتراكي لا تكتفي ، ولا يمكن ان تكتفي ، طبيعته الثورية بالوقوف أمام الحاضر ، بل ان تنظيمه يفرض دائماً استشراف المستقبل من خلال الحاضر وعلى أسس الحاضر . ولهذا ليس دور الادب السوفياتي التأثر وحسب بالواقع القائم ، بل التأثير فيه ، تأثراً وتأثيراً موجهين ايجابيين مرتبطين باهداف المستقبل

— المستقبل الذي يستشرفه الاديب من الواقع الثوري المتطور ابداً تطوراً ماديا حقيقياً الى تلك الاهداف . ومن هنا كانت رومانطيقية من طراز جديد تمازج تلك الواقعية في الادب السوفياتي . يقول فادييف : « ان الواقعية الاشتراكية لتشتمل على عناصر من المذهب الواقعي القديم . ومع ذلك فالواقعية الاشتراكية تختلف بأسسها عن الواقعية القديمة . ليست الواقعية الاشتراكية صورة فورية يرسمها الفنان لاتجاهات التطور دونما فهم للمستقبل . كلا . فالكاتب السوفياتي يشهد المستقبل وهو في الحاضر . بكلمة اخرى ، يشهد الكاتب السوفياتي الحقيقة في تطورها الثوري ، ويثقف القارىء تثقيفاً في مصلحة المستقبل . يعني هذا ان الواقعية الاشتراكية تشتمل ، بالضرورة ، على عناصر من الرومانطيقية الثورية . لست اقصد رومانطيقية فيكتور هيغو وغيره من الحلامين الذين يفصلون بين « الحلم » — بين « ما ينبغي ان يكون » ، وبين الحقيقة التاريخية . ان الواقعية الاشتراكية تستدعي رومانطيقية ثورية ترتكز الى علاقات حقيقية تقوم بين البشر . ان الواقعية الاشتراكية لادغام عضوي بين الواقعية

والرومانطيقية » .

ومن هنا — من صفة الواقعية ، كانت ظاهرة ملموسة في الادب السوفياتي ، هي اتسامه بالوضوح ، واتباع الاسلوب الكلاسيكي. وهي ظاهرة من طبيعة الادب الواقعي.

فلقد استكمل الكلاسيك ، من حيث الاسلوب ، كل عناصر الدقة والجمال . وانما أصبح « عيبه » أخيراً وضوحه وضوحاً يشف عن افلاس المحتوى في أدب دنيا رأس المال ، فاضطرار ممارسي هذا الادب على اجترار ما لاكوه آلاف المرات . فهم يعمدون الى طلاء المحتوى المهتري بالغموض والرمز ، وبالتحايل على الألفاظ والتراكيب ، وتطرية الشكل ، ولو خرجوا في ذلك على اصطلاح الناس واصول اللغة ومفاهيم البيان. وليس يحتاج الادب السوفياتي الى هذا الخنوط ، لانه ادب شاب ، ادب واقع دائم التجدد والانبعاث ، ادب حضارة جديدة . وليس يحتاج الادباء السوفياتيون الى الغموض والرمز ليستروا به فراغاً وخواء ، بل هم أحرص الادباء على اكثر الوضوح ، لانهم يقبسون عن هذا التجدد والانبعاث الدائمين ، فلديهم ابداً جديد يقولونه . ولهذا كانت الحلة الكلاسيكية السليمة هي

الحلة الطبيعية لهذا الادب الشاب المعافى . اما الشكل، من حيث هو بوجه عام ، من حيث العناية به وتنميقه وجريانه على مقاييس الفصاحة ، فمن الطبيعي أن ترتبط المسألة ايضاً بتلك الواقعية — الواقعية الاشتراكية . فقد ورث النظام السوفياتي عن النظام القيصري البائد تركة واسعة من الامية وانحطاط المستوى الثقافي . وكان لا بد للادب ، في اوائل العهد السوفياتي ، وقد اصبح للشعب وحده — لجميع الشعب ، من ان يتوخى ما امكن من الوضوح والبساطة . ولكنها لم تكن ، قط ، مشكلة للادب . ذلك ان المدارس اخذت تنشأ في نفس الوقت بما يسد حاجة جميع الشعب ، وعمم التعليم الاجباري ووضعت تحت تصرف الشعب ، عدا المدارس والمعاهد ، كل الامكانيات ، من مكاتب وصحف واندية ومسارح ودور سينما ، ليتثقف . واخذت العناية بالشكل تتدرج مع مستوى الشعب الثقافي ومقدار تذوقه للاشكال الفنية ، فهي تصعد ما صعد هذا الواقع الجديد الصاعد ابداً . فليست القضية قضية تخل عن الشكل الجميل ، بل قضية حرص على ان لا يكون الادب للفئات الاقل ، وان لا يقف الشكل حاجزاً دون وصول الجوهر الى الشعب .

ويقول الكاتب السوفياتي « سيمونوف » : « ان اديبين قد يعبران عن الجوهر نفسه بشكلين مختلفين . وعندي اننا لسنا نستطيع ان نقرر من الأكبر او الاعظم منهما . لكننا نستطيع ان نعرف من الاوضح والاقرب الى الفهم . فهذا أديب يفهمه الجميع ، وهذا أديب لايفهمه الا القليل . وهنا اعيد القول اننا لسنا نستطيع ان نقرر من الاكبر والاعظم منهما . على انني ارى ، مهما كان الامر ، ان الكاتب ينبغي له دائماً ان يظل حيوياً وقوياً في عباراته ومعانيه » (١) .

تلك هي ، بوجه الاجمال ، الاسس التي يقوم عليها الادب السوفياتي ، وهي الاسس التي قيس بها عمل الكاتب « زوتشنكو » والشاعرة « أخماتوفا » . فماذا نرى في عمل هذين الاديبين ؟ نرى انسلاخاً تاماً عن واقعية ذلك المجتمع الرائع . فعمد الاول الى طريق سلبية ترتد عن أهداف ذلك الشعب البطل ، وعن مشاهد بطولاته الشبيهة بملاحم الأساطير ، سواء في الحرب أم في السلم . فما هزته بطولة مدينته ـ لينينغراد ـ

---

(١) من حديث له نقله الاستاذ رئيف خوري اثناء مقابلة جرت بينهما في موسكو عام ١٩٤٧ ، ونشر في الجزء الثاني من « الحضارة الجديدة » .

في دفاعها أيام الحصار النازي الطويل الثقيل ، وصمودها تحت وطأة القتل والتدمير والجوع والبرد والحرمان ، صموداً اي صمود . ولا اثار قريحته استبسال ستالينغراد استبسالا أقال التاريخ من عثرته . ولا استوقفته تلك الوثبة الجبارة التي وثبتها الثورة الاشتراكية بالانسانية ، ففتحت مصاريع حضارة جديدة ، بل راح يتحدث ، دون ذلك كله ، حديث من لا يرى حصاد كل تلك البطولات غير همّ من هموم قرد .. يقول جدانوف : « انه (في كتابه « مغامرات قرد ») ينصب القرد قاضياً على المنصة يصدر الاحكام على عاداتنا الاجتماعية ويملي الاخلاق على الشعب السوفياتي » . « لقد صور (زوتشنكو) حياة الشعب السوفياتي تصويراً بشعاً مبتذلا ، ليتيح للقرد ان ينطق بهذا الحكم المعادي للسوفيات ، هذا الحكم القذر المسمم : ان الحياة في حديقة الحيوانات لافضل من الحياة الحرة ، وان الكائن ليتنفس اذ هو في القفص بحرية اوفر من حريته اذ هو بين الشعب السوفياتي » .

وفي صميم ذلك المجتمع السوفياتي البطل الرائع — تلك الحقيقة الثورية المتجددة الصاعدة البهيجة ، ترسل الشاعرة « اخماتوفا » الحاناً يتأوه بها تأوهاً فاجراً ماض شخصي

سحيق ، من عهود الصالونات ، غائب في ضباب من الشهوات الجنسية ، وفي امتدادها من ذكريات هستيرية وحنين قانط وأحلام افيونية تغري بالتصوف والاستسلام الى القنوط والارتداد عن هذه الحياة الطالعة بصفوة القوة والحق والعمل والجمال . يقول جدانوف : « كل مادة مواضيع اخماتوفا فردية حتى الصميم . والمدى الذي يتناوله شعرها محدود ضيق على صورة محزنة . شعرها شعر امرأة ارستوقراطية مدلعة تتأرجح تأرجحاً محموماً بين مخدعها وكنيستها . توكيدها الرئيسي على مواضيع الحب الجنسي » . ذلك هو عمل ذينك الاديبين ، افلا يكون من حق هذا المجتمع ، وفيه تبث هذه السموم ولناشئته تزين هـــذه الردة ، وعلى حسابه تنشر شتائم زوتشنكو له ، ان يحاسبهما وان يمنع عنهما امكانيات العمل ؟ يجيب جدانوف على هذا السؤال بقوله : « يقيناً لسنا مضطرين ان نفسح مجالا في ادبنا لاذواق واساليب لا شركة بينها وبين اخلاق الشعب السوفياتي وميزاته » . « فأية غنيمة تثقيفية تستطيع ان تجنيها ناشئتنا من ادب اخماتوفا ؟ لا تستطيع ناشئتنا ان تجني من هذا الادب الا الاذى . ذلك ادب ليس في طاقته الا أن يزرع

السوداوية ، وتثبيط الهمم والتشاؤم ، والرغبة في الفرار من قضايا الحياة الاجتماعية الهامة ، والشهوة الى الانصراف عن جادة الحياة الاجتماعيـة والعمل الاجتماعي الى عالم صغير ضيق من الممارسات الشخصية » .

على أن وضع المسألة الادبية بهذا الشكل ، ليس قضية سوفياتية محلية ، وحسب . بل هي ، بالضرورة، قضية عالمية . فقد تطور النظام الرأسمالي حتى اقصى مداه — حتى الاستعمار . وأصبح يستحيل عليه أن يعيش بغير الاستعمار . ولقد تحالف هذا النظام — في سبيل ذلك — مع بقايا الاقطاعية نفسها — وهو الذي على انقاض الاقطاعيـة قام ، وفي سبيل دكها ثار — محاولا شق طريق الى الفاشستية ، الى رجعة بالانسانية لظلمات القرون الغابرة . اي بكلمة واحدة : لقد أفلس النظام الرأسمالي . والاستعمار يواجه اليوم مصيره القريب تحت ضربات الشعوب المتوثبة الى الحرية ، ويوشك ان يحسّ ميَدان الارض تحته ، توقعـاً لانفجارات شعبية لا تبقي عليـه ولا تذر . فأي حال هي حال الادب في مثل هذا النظام المفلس ؟ لا شك أننا لسنا نحيـد عن الحقيقة اذا قلنا ان الادباء الذين يحاولون ان يجعلوا

من عملهم الادبي امتداداً واستمراراً تقدمياً لادب النظام الرأسمالي فيما مضى ، هم اشبه بالسياسيين الذين يحاولون ان يوهموا بان الاستعمار ، ومن ثم الفاشستية ، هو امتداد واستمرار تقدمي للانقلاب الرأسمالي على الاقطاعية . لقد بلغت الآداب الرأسمالية ، هي أيضاً ، مداها الاقصى من التطور والامتداد . فهي اليوم مضطرة على ان تصقل وتعيد ما صقلته واعادته آلاف المرات . ولا أدل على هذه الظاهرة – ظاهرة الافلاس – من انصراف ادباء النظام الرأسمالي في المدة الاخيرة – اي في المدة التي بلغ فيها النظام الرأسمالي اقصى مداه من التطور : نقطة الافلاس – الى التشاغل والانهماك بتزويق الشكل، انهماكا أدى الى ان يكون الادب أدب شكل ، وحسب. واصبحت الاعمال الادبية عبارة عن تجديد المحاولات للتحايل على هذا الشكل واظهاره بلون جديد ، حتى بلغ الامر حد التعمية . وقامت دعوة الى « الفن لذات الفن » ، وتجددت هذه الدعوة واشتدت ، مع الدعوة الى تأليف « القوة الثالثة » – دعوة الى الادباء لتجاهل الصراع الجبار القائم بين الشعوب والاستعمار ، والانطواء في بروج عاجية ، يجترون ذواتهم . فكانت

هذه الدعوة منبعثة من صميم الاتجاهات الاستعمارية لتعطيل النضال في سبيل الحرية . ان ازمة الادب الرأسمالي هي من ازمة النظام الراسمالي نفسه .

وهي ازمة تتناول ، بالضرورة ، البلاد العربية . وكثيراً ما تتخذ شكل دعوة الى الرجوع الى « روحانية الشرق » . دعوة تنتهي ، بالنتيجة ، الى تحميل العلم ، وما انتجه من اختراع واكتشاف ، مسؤولية شرور النظام الاجتماعي القائم . واذ يبقى اولئك الدعاة في ضباب لا يبين عن حقيقة هذه « الروحانية » المزعومة ، لا يكون لدعوتهم من مغزى سوى الوقوف موقفاً سلبياً من العلم ، والاستغراق في حلم من احلام الف ليلة وليلة . هذا ، وتتخذ حرية النشر وسيلة لترويج ما تصدره هوليوود واخواتها ، افلاماً وكتباً وصحفاً ، من عري فاجر ، وقصص بوليسي يغري بالاستسلام الى الاوهام المجردة ، ويشجع على الجريمة . وشعوذة يفترونها على العلم تارة باسم « علم » استحضار الارواح ، وطوراً باسم علم النفس . وادب مصوص باهت لكثرة ما لبك واجتر منذ الجيل الماضي حتى اليوم ، فهو يعالج ثم يعالج برنين الالفاظ وبهرجة التراكيب وتلغيز المعاني ، ولكنه يظل ابداً

ذلك الادب الباهت الممصوص الذي رث لكثرة ما استعير وتداولته الاقلام . وآخر يرتكز على التهريج او مواضيع التهتك والشذوذ الجنسي ، او هو يبشر بـ « الجبرية » القائمة على ان الصدف العمياء ، او القضاء والقدر ، هو الذي يقرر مصير الانسان . فالشرور الاجتماعية سرمدية لازمة ما لزمت الحياة الانسان . هي شيء من الطبيعة الانسانية ، لن يتغير ما دام الانسان انساناً . فلا سبيل اذن الى حياة اطهر وامثل ، وليس امام المحروبين والمهضومين والمضطهدين سوى الاستسلام ، وانتظار تصاريف القضاء والقدر . وبالنتيجة ان العلاقات الاجتماعية — العلاقات القائمة على الاستعمار والاحتكار ، ومن ثم الافقار والتجهيل والامراض ، فالاوبئة الاخلاقية التي تنتج عنها ، وتتيح لذاك الفريق « المحايد » من الادباء ، صوراً ادبية ، وجودية ورمزية وما اليها ، صوراً يعتبرونها « فناً لذات الفن » — نقول ان هذه العلاقات هي ايضاً سرمدية وشيء من طبيعة الانسان ، لا سبيل الى تغييره ما دام الانسان انساناً . وقديماً جعلوا ، بكل جد ورصانة ، انف ملكة وبواسير امبراطور سبباً في كون وجه التاريخ على ما هو

عليه اليوم ، ذلك هو انف كليوباطرة وبواسير نابليون ، فقالوا لولا ذاك ولولا هـــذه لتغير وجه التاريخ .. وفي زمن الحرب الكونيـــة الثانية كانت احدى الصحف المصرية الكبيرة ، تكتب مرة في تعليـل تلك الحمى الجنونية التي تأخذ بدماغ الطاغية النازي هتلر . فكان من احتمالاتها ان هتلر لم يتح له ان يسمع غناء أم كلثوم . ولو انه تزوجها ، وسمع صوتها لكان من المحتمل ان يقصر عن النازية ويوفر على الانسانية هذه المجزرة ، واذن لكان من المحتمل ان يتغير وجه التاريخ ..

ان مثل تلك الدعوة الى الضياع والفراغ وسفساف القول والعمل ، الى الانهيار والانتحار ، تنشر بجميع وسائل النشر في البـــلاد العربية ، تحت ستار حرية الرأي والنشر ، وباسم « الفن لذات الفن » — باسم الادب « المحايد » والثقافة « المحايدة » . وهي دعوة ذات صلة وثيقة ، ولو بصورة غـير مباشرة ، بالعمل السياسي الذي ينظم لتوطئة ربوعنا أمام المقاصد الاستعمارية المرادة بنا . هي دعوة غايتها صرف النفوس عن الجد والطموح ، وبث القنوط من حياة امثـل واكرم ، وتزيـين الاستهتار ، وبالنتيجة الإستسلام الى الصدف

العمياء ، الى القضاء والقدر ، الى قضاء الاستعمار وقدره. وهي دعوة لا تضاد ، وحسب ، المصالح القومية العربية الحاضرة ، بل هي تخرج ايضاً على تقاليد ادبنا العربي .. أدب كاد لا يخلو عصر من عصوره من اديب او شاعر عاش لمثل اعلى ، ينافح عن العدالة ويصارع الظلم والاستبداد ، من عروة بن الورد والكميت ويزيد بن مفرغ وعمران بن حطان الى ابن المقفع الى المعري الى الريحاني الذين بلغ من ثقته برسالته الفكرية وايمانه بالعلم ان وقف امام جبروت اميركا ، وهي في اوج تضخمها الصناعي الهائل ، وقفة من لا تبهره انوارها المتلألئـة ، ولا يضعضعه صخبها المجلجل ، ولا يروعه بنيانها الشامخ ، عن النفاذ الى حقيقة الاساس الفاسد الذي يقوم عليه هذا الجبروت ، فصاح بها : « جمالك يملأ الفضاء نوراً ، والنفس ظلاماً . نبت اثيل اوراقه جسيمة وازهاره سقيمة » . غير ان هذا « الجمال المظلم » الذي كان يبدو اشد ما يكون مكنة ورسوخاً والذي كان يبـدو سيرا سرمديا للتاريخ ، وكان يراد له ان يكون سيراً سرمدياً للتاريخ لا محيد عنه ، لم يؤيس الريحاني من رسالته الفكرية — من استشراف حياة امثل واطهر ، ولا صرفه الى العبث والتفاهة ، بل تنبأ

لذلك الجبروت واثقاً مطمئناً ، وهو ينفذ الى اعماقه ، بمصير الثورة والهلاك . واكد ان اليوم الذي « تتساوى وتتوازن فيه الاعضاء ، فتظهر على الهيأة الاجتماعية علائم الجمال ودلائل الكمال » ، هو يوم « آت ، وكل آت قريب » .

اننا ، حيال تلك الازمة الفكرية ، في البلاد العربية ، نشعر بشديد الحاجة الى اسس ثقافية سليمة نبني عليها عملنا الادبي ، وحدود للعمل الادبي ، من الفكر الموجه ، المؤمن بالعلم وبعظمة الانسان ، الفخور بانسانيته ، وبما حققه الانسان من جليل الصنع ورائع الابداع — اطراد علم وتقدم وصلاح ، دل تاريخ الانسانية الرائع على انه اطراد لازم محتوم ما لزم الارض الدوران . ما هي قيمة ادب يبشر بالكفر بالميكانيك ، وهو لا يكتب بالقصب ولا يسطر على الرق ، بل يطبع بالكهرباء وعلى ورق صنعته الكهرباء ، وتتداوله الآفاق بالبرق وبالبريد الميكانيكي ؟ وما هي النتيجة من مثل هذه الدعوة سوى اراحة محتكر الميكانيك ومسخره لامتصاص دماء الجماهير ، من تقديم الحساب العسير ؟

اننا نشعر بشديد الحاجة الى حدود فكرية للعمل

الادبي مرتكزة على الواقع التاريخي ، ومرتبطة بالغايات المؤملة من نضال العلم في سبيل سيطرة الانسان على الطبيعة .

ليست طريق « بول سارتر » الى الوقوف والاستسلام والانهيار ، هي الطريق المرجوة لأدبنا ، بل طريق النضال في سبيل المستقبل الامثل ، طريق فرسان القلم من امثال الريحاني والكواكبي والشميل وعمر فاخوري ومكسيم غوركي ورومان رولان .

حقاً ان الاهداف الادبية الموضوعة في تقرير جدانوف امام الادباء السوفيات ، والمستندة الى الواقع الاشتراكي ، قد لا تكون موضوعة هي بذاتها امام ادبنا العربي في الوقت الحاضر . غير ان الاصول العامة التي يرسمها جدانوف للعمل الادبي ، هي في الواقع اصول مبنية على ضوء الوضع الادبي في العالم كله . فهي ، من ثم ، أسس ضرورية للبناء الادبي اطلاقاً .

ومهما يكن موقف اديب من القضايا الادبية ذاتها التي يضعها جدانوف ، فذلك لن يعفيه من ان يصدر في عمله الادبي عن مسؤولية ازاء شعبه : آماله وآلامه وافراحه واتراحه .

لمحة من سيرة جدانوف

●

ولد اندريه الكسندروفيتش جدانوف في ٢٦ شباط ، سنة ١٨٩٦ (١٤ شباط حسب التقويم الشرقي) في مدينة ماريوبول حيث كان ابوه مفتش المدارس الابتدائية .

سنة ١٩١٢ ، بعد استقرار ابيه في مدينة « تفير » (مدينة كالينين اليوم) ، اتجه جدانوف الفتى شطر الحركة الثورية ، اذ هو في السادسة عشرة من عمره . فطفق يتردد على حلقات شبيبة « تفير » الاشتراكية الديموقراطية .

وفي سنة ١٩١٥ ، اندمج في صفوف حزب البولشفيك. فابدى نشاطاً حزبياً ، فعالا جداً ، في حي العمال من مدينة تفير ، فلم يلبث ان اسندت اليه وظائف في الحزب .

إبان الحرب العالمية الاولى ، جُنِّد في الجيش فدعا فيه الى المبادىء البولشفية ، وكان في جملة من عملوا على تهيئة ثورة اوكتوبر الاشتراكية الكبرى . وقد خاض غمارها ، على مدى مراحلها كلها ، في اقليم « الاورال » .

اثناء الحرب الاهلية انصرف الى شؤون التربية السياسية في وحدات الجيش الاحمر . وظل يتدرج في حزب البولشفيك حتى انتخب ، بعد مؤتمره السابع عشر ، اميناً من امناء السر فيه . ولم يفتأ الى جانب اعماله في الحزب والدولة السوفياتية ، يعنى عناية عميقة بالقضايا الادبية ومسائل الفلسفة الماركسية اللينينية .

وفي مؤتمر الكتاب السوفيات الاول ، القى خطاباً حافلا رسم فيه أهم الاهداف الموضوعة امام الادب السوفياتي في تطوره ونموه .

وبعد اغتيال كيروف قائد حزب البولشفيك في مدينة لينغراد ، كلف جدانوف ان يخلفه في هذا المنصب الخطير في تلك الظروف الصعبة . فاحرز نجاحاً باهراً في انجاز مهمة التطهير الواجبة ، وانتخب بعد مؤتمر حزب البولشفيك الثامن عشر ، عضواً في مكتبه السياسي .

وابان الغزو الهتلري المحوري للاتحاد السوفياتي — ابان الحرب الوطنية العظمى — كلف جدانوف تنظيم الدفاع عن مدينة لينينغراد التي جمدت الزحف الالماني عند عتباتها في حصار تاريخي عظيم ، ثم صدته صداً ومزقته شر ممزق . وقد ابدى جدانوف كفاءات عسكرية رائعة ، فاحرز

رتبة زعيم قائد (كولونيل جنرال) ونال جملة من ارفع الاوسمة منها وسام سوفوروف ووسام كوتوزوف ووسام العلم الاحمر ...

غب النصر السوفياتي الرائع على قوى النـــازية والفاشيستية ، انصرف جدانوف الى بذل جهد عميق خصب في ميدان الفكر . فقدم جملة من تقارير رائعة في مسائل الادب والفن والفلسفة ، منها التقرير الادبي المعرب بين دفتي هذا السفر .

حتى اللحظة الاخيرة من هذه السيرة العبقرية الشاملة ، ظل جدانوف يمارس نشاطه العميق المنوع في شتى الحقول ، من سياسية وادبية وفكرية وتنظيمية ، بوصفه عضو حزب وقائداً ديموقراطياً عالمياً وباحثاً ماركسياً ضليعاً ونائباً في مجلس السوفيات الاعلى .

توفي في ٣١ آب ، سنـة ١٩٤٨ ، تاركا وراءه تراثاً خالداً من التجرد في خدمة الشعب والحرية والديموقراطية المثلى والسلام والعلم .

الكتاب السوفيات ينعون جدانوف

●

... كان الرفيق جدانوف صديقاً عظيما للكتاب السوفيات ، صديقاً يؤمن بقوى الابداع الكامنة في ادبنا . وفي الوقت نفسه ، كان نقادة صارماً مقداماً ينقد كل ما يعوق ادبنا ، كل ما يكون عقبة على طريق تطور ادبنا .

لأربع عشرة سنة خلت ، نزولاً عند تعليمات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (البولشفيك) في الاتحاد السوفياتي ، خطب جدانوف في اول مؤتمر عقده الكتاب السوفيات . فعالج في خطابه واوضح افكار ستالين العظيمة في ما يتعلق بالواقعية الاشتراكية وسبيل تطور الادب السوفياتي » . وقد تجاوبت البلاد كلها باصداء كلماته الحارة : « ان فلاح الادب السوفياتي مربوط بنجاح البناء الاشتراكي . نمو الادب السوفياتي يكون

عبارة عما يفلح نظامنا الاشتراكي في انجازه من اعمال . ادبنا احدث اداب الامم والاوطان سناً . وهو في الوقت نفسه حامل اسمى الافكار . انه اعظم الآداب رقياً وثورية . باستثناء الادب السوفياتي ، لم يسبق البتة ان قام ادب ينشط لحشد الشعب العامل وحشد المظلومين في سبيل النضال لالغاء الاستثمار كله ، الغاء الاستثمار اياً كان ، الغاء نير العبودية للاجور – الغاء نهائياً » . تلك كلمات حددت بدقة عجيبة جوهر الادب السوفياتي، ومن ثم اصبحت المنهج الذي درج عليه ادبنا في تطوره.

كان جدانوف ، على تعدد صيغ نشاطه ، يهتم دائماً اهتماماً اساسياً للمسائل المتعلقة بنشأة فن تقدمي يجلو مثل حزبنا العليا . لقد كان نظرياً ماركسياً ضليعاً ، وداعية المعياً في خدمة مبادىء لينين وستالين العظيمة .

باسم الرفيق جدانوف تقترن اعظم الاحداث في ادبنا وفننا . ان بيانه الذي القاه على اثر المقررات التاريخية التي اتخذتها اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (البولشفيك) في الاتحاد السوفياتي – تلك المقررات المتعلقة بصحيفتي « زفيردا » و « لينغراد » – كان وثيقة ذات وزن خطير ، وثيقة صلحت ان تكون

الاساس لتعزيز الادب السوفياتي الراقي . كذلك كانت خطبه في المناقشة حول الفلسفة ، وفي مؤتمر الموسيقيين السوفيات ، مساهمة نظرية كبرى اضافها الى العلم الماركسي ، كما كانت في الآن نفسه دليلا فعلياً عملياً ، يوجه الجهد الابداعي في العلم والفنون .

كان رجلا عميق الثقافة رحب الاطلاع بحيث كان يدهش جميع الذين اتاح لهم الحظ ان يتحدثوا ويصغوا اليه ، يدهشهم بسعة معارفه في حقول الفن كلها .

كان ابداً يتطلع الى امام ، ويعلم الفنانين ان يصنعوا صنعه . كان يتمتع بقدرة فذة على اكتشاف الجديد ، وتأييد هذا الجديد في كفاح القديم تأييداً يجيء في وقته . كان ابداً يقول ان الكاتب ملزم ان يثقف الشعب ، وان رسالة الكاتب النبيلة انما هي تسليح الرجال والنساء السوفيات بافكار اللينينية الستالينية التي لا تقهر. كان رفيقاً في السلاح لستالين العظيم ، فكان جدانوف يرى اثمن صفة في الفنان السوفياتي حزبيته البولشفية . واننا لنجد في مبدإه هذا اهم تراث خلفه للكتاب السوفيات .

قال جدانوف في مؤتمر الموسيقيين السوفيات : « اذا

كنت انا الكاتب ، او الفنان ، او رجل الادب ، او العضو العامل في الحزب ، لا اتوقع ان يفهمني اهل عصري ، فعلام اذن احيا وأجهد ؟ » .

وذلك سؤال حار توجه به الى اناس يأبون ان يفهموا ان الحياة في نظر الفنان انما تعني قبل كل شيء خدمة لشعبه قوامها انكار الذات . « المواطنون السوفيات ـ يقول الرفيق جدانوف — معودون ان يضعوا مصالح الشعب ، مصالح الدولة ، فوق كل شيء . معودون ان يعتبروا القضية العامة المشتركة قضيتهم الحيوية الخاصة » . وفي نظر جدانوف ، وهو من ابرز اعضاء حزبنا ، كانت قضيته الخاصة الحيوية تتلخص في وقف حياته كلها على النضال في سبيل انتصار الشيوعية النهائي . وشد ما كان في هذا النضال جندياً مجنداً لا يتقاعس ولا تختلف خطاه . شد ما سخر وهو يفند الفن البورجوازي المنحط . وشد ما غضب وهو يتحدث عن اولئك الذين يتسكعون على آثار هذا الفن . كان يقول : « من سوانا ، نحن بلاد الماركسية الظافرة وفلاسفة الماركسية ، ينبغي له ان يرأس النضال ضد الذهنية البورجوازية الرجسة الفاسدة ويكيل لها الضربات

الساحقة ؟ » .

ولقد كان هو أول من كال هذه الضربات الساحقة حقا . فكان بذلك قدوة للكتاب والفنانين والموسيقيين والفلاسفة .

ما احر ما كان جدانوف يعنى بفنانينا ، وبجميع العاملين المخلصين في حقل الثقافة السوفياتية . كان الكتاب ابداً يجدون لديه تأييداً لجهودهم الابداعية . كانوا ابداً يستطيعون البلوغ اليه . كان دائماً قريباً وحبيباً الينا ... كان صديقاً حقاً .

ان سيرة وقفاً على الانسانية ، مثل سيرة جدانوف ، ستصلح ان تكون على مدى اجيال كثيرة قدوة باهرة للفضيلة المدنية الشيوعية .

كان مثالا في الجرأة ، نظم الدفاع البطولي عن لننغراد والهمه بروحه . فهو الذي نفذ خطة ستالين فكان المدبر الرئيسي الذي هزم الالمان في لننغراد . وكان مثالا بلشفياً في العناية بالناس ، خلال ظروف كان بذل العناية فيها بالناس أمراً شاقا صعبا ، وبالتالي اسمى قيمة .

ان صورة أندريه الكسندروفتش جدانوف البهية ،

صورة هذا البلشفي النقي نقاء البلور ، هذا المحامي الحمس عن الشعب ، هذا الرجل العظيم في سحر الشخصية ، ستبقى الى الابد مطبوعة في قلب شعبنا ماثلة في ذاكرته .

اندريه الكسندروفيتش جدانوف مات ... ذلك أمر صعب على التصديق ... مستحيل على القبول . العبارات اعجز من ان تعبر عن فجيعة الشعب . لكن عندما يغادرنا بشر مثل جدانوف ، تمتزج الكآبة والحسرة فينا برغبة قوية ساطية حافزة على العمل ، ثم العمل ، ثم العمل ، في بناء الشيوعية كما بناها ، في الاخلاص للاشتراكية كما اخلص لها ، في بذل جهودنا اقصى بذل كما فعل دفاعا عن مثل الشيوعية العليا ، وفي وقف حياتنا كلها على الشعب كما صنع اندريه الكسندروفيتش جدانوف (★)

ا . فاديف . ك . سيمونوف . ن . تيخونوف .
ب . غورباتوف . ا . كورنيتشوك . ف . فيشنفسكي
ل . ليونوف . ا . سافرونوف .

★ معربة عن النص الانكليزي المنشور في جريدة موسكونيوز ، الجمعة ٣ ايلول ، سنة ١٩٤٨ .

إنّ الأدب كان مسؤولاً *

•

* صدر هذا الفصل بالانكليزية سنة ١٩٤٧ في مجلة « ووكس » السوفياتية عدد ٥١، بعنوان : تقرير عن المجلتين « زفيزدا » و«لينغراد». وقد نقل الى العربية عن هذا النص .

أيها الرفاق :

واضح من قرار « اللجنة المركزية » ان شر خطأ اقترفته الجريدة « زفيزدا » أنها اذنت بنشر مؤلفات زوتشنكو واخماتوفا الادبية على صفحاتها . اكاد لا اعتقد انني الساعة في حاجة الى الاستشهاد بـ « مؤلف » زوتشنكو : « مغامرات قرد » . بالطبع قرأتموه جميعاً ، فانتم على معرفة به خير من معرفتي . ان مغزى هذا « المؤلف » ان زوتشنكو يصور فيه الشعب السوفياتي كسلان قبيحاً أحمق فطرياً . لا يأبه زوتشنكو مطلقاً لكد الشعب السوفياتي وجهوده وبطولته وصفاته الاجتماعية الخلقية العالية . زوتشنكو يغفل هذه المواضيع اغفالا تاماً . انه المتحذلق المبتذل ، وكالمتحذلقين المبتذلين نراه قد اختار ان ينقر في ادنى جهات الحياة واتفهها . وليس هذا التنقير في صغائر اشياء الحياة صفة عارضة . تلك خلق صميمي في جميع الكتاب المتحذلقين المتفاصحين ، وزوتشنكو منهم . وكثيراً ما كان غوركي يتحدث عن ذلك . فانتم على الارجح تذكرون كيف انه في مؤتمر الكتاب السوفيات ، عام ١٩٣٤ ، وصم وصماً هؤلاء

المدعوين « رجال ادب » الذين يعجزون ان يروا أبعد من السخام في المطبخ والحمام .

ان كتاب « مغامرات قرد » ليس شيئاً خارج السياق العام الذي تطرد عليه قصص زوتشنكو . ولم يكن هذا المؤلف ليسترعي انتباه النقاد لولا انه اسطع تعبير عن الجوانب السلبية كلها في « عمل » زوتشنكو « الادبي » . نحن نعلم ان زوتشنكو غب عودته الى لننغراد بعد الجلاء عنها قد كتب جملة اشياء ذات دلالة خاصة على عجزه ان يجد ظاهرة ايجابية واحدة في حياة الشعب السوفياتي ، او شخصية ايجابية واحدة بين جميع ابناء هذا الشعب . من عادة زوتشنكو – شأنه في ذلك شأنه في « مغامرات قرد » – ان يستهزىء بالمعيشة السوفياتية ، بالاساليب السوفياتية ، بالشعب السوفياتي، مقنعاً استهزاءه بقناع من تفكهة فارغة ودعاب سفساف. وانكم اذا كلفتم انفسكم قراءة قصته : « مغامرات قرد » قراءة اوفر حظا من العناية ، تجدون انه ينصب القرد قاضياً عالي المنصة يصدر الاحكام على عاداتنا الاجتماعية ويملي الاخلاق على الشعب السوفياتي . يبدو القرد عنده مخلوقاً ذكياً كفؤاً لتقويم السلوك البشرى . ولقد صور

المؤلف حياة الشعب السوفياتي تصويراً ممسوخاً عن قصد وعمد . صورها شيئاً بشعاً مبتذلاً ، ليتيح للقرد ان ينطق بهذا الحكم المعادي للسوفيات ، هذا الحكم القذر المسمم : ان الحياة في حديقة الحيوانات لأفضل من الحياة الحرة ، وان الكائن ليتنفس اذ هو في القفص بحرية اوفر من حريته اذ هو بين الشعب السوفياتي .

فهل باستطاعة امرىء ان يسفل خلقاً وسياسة الى اسفل من هذا ؟ كيف يستطيع اهل لننغراد ان يتسامحوا بصدور مثل هذه القذارة والبذاءة على صفحات جرائدهم ؟

شد ما ينبغي لاولئك اللننغراديين الموكلين بجريدة « زفيزدا » ان يكونوا مقصرين في الحيطة والسهر ، اذا كان « مؤلف » من هذا النوع يجري عرضه في صفحات هذه الجريدة على القراء السوفيات ، واذا كان اولئك اللننغراديون يرون ممكناً نشر مؤلفات مشبعة بسم عداوة حيوانية للنظام السوفياتي . نفاية المجتمع الادبي هي وحدها التي تستطيع ان تنشىء مثل هذه « المؤلفات » . وناس عمي عدموا كل شعور سياسي هم وحدهم يستطيعون ان يأذنوا لهذه المؤلفات بالظهور . يقال ان قصة زوتشنكو قد دارت على مسارح لننغراد

كلهـا . شد ما ينبغي ان يكون قـد هبط مستوى قيادة العمل الثقافي في لننغراد حتى امكن ان يتم مثل هذا الحدث .

لقد تيسر لزوتشنكو ان يحتل – كأنه في بيته – صفحات جريدة لننغرادية هامة ، تسنى له فيها ان يعمم « عظاته الخلقية » الممقوتة . ومع هـذا ، فـ « زفيزدا » جريدة مفروض فيها ان تثقف ناشئتنا . فهل باستطاعة جريدة حضنت كاتباً مبتذلاً لاسوفياتياً مثل زوتشنكو ان تنهض بهذا الواجب ؟ افلا تعلم هيئة تحرير « زفيزدا » من زوتشنكو ؟

في اجل ليس ببعيد – في مستهل عام ١٩٤٤ على وجه الدقة – نشرت جريدة « بولشفيك » مقالا ينقـد نقداً حاداً ، كتاب زوتشنكو « قبل بزوغ الشمس » . وقد كتبه في اوج الحرب التحريرية التي قام بها الشعب السوفياتي على الغزاة الالمان . يعري زوتشنكو في هذا الكتاب دخيلة نفسه الدنيئة الرخيصة ، ويرضى عرض نفسه على الانظار العامة ، بل انه ليفعل ذلك بـــلذة قائلا : اشهدوا لي اي عربيد انا !

صعب وجود شيء في ادبنـا ادعى الى الاشمئزاز

من « العظة » التي يؤديها زوتشنكو في كتابه « قبل بزوغ الشمس » ، هذا الكتاب الذي يمثل فيه نفسه وغيره من الناس بهائم دنيئة داعرة لا حياء لها ولا ضمير. اجل ، تلك هي « العظة » التي قدمها للقراء السوفيات وقت كان شعبنا يسفك دمه في حرب مرة لم يسبق لها مثيل ، وقت كانت حياة الدولة السوفياتية معلقة بشعرة ، وقت كان الشعب السوفياتي يبذل تضحيات لا حصر لها في سبيل هزيمة الالمان . كان زوتشنكو يومئذ قابعاً في « علما ـ عطا » بعيداً في المؤخرة ، فلم يصنع يومئذ شيئاً لنجدة الشعب السوفياتي في نضاله الغزاة الالمان . فشهرته جريدة « بولشفيك » تشهيراً بحق ، على اعتباره شتاماً بذيئاً رخيصاً ، غريبا عن الادب السوفياتي. لكنه يومذاك صفق يداً على يد في وجه الرأي العام. ثم بعد اقل من عامين — وخبر جريدة « بولشفيك » لا يزال طريئاً — وصل زوتشنكو هذا — هو اياه ! — وصول الظافرين الى لينينغراد وشرع يستخدم صفحات الجرائد اللينغرادية استخداماً بمطلق حرية . رحبت « زفيزدا » بقصصه كما رحبت بها كذلك الجريدة «لينغراد» وانفتحت له قاعات التمثيل على يسر واستعداد . وادهى

من ذلك ان اتيحت له فرصة احتلال مركز قيادي في الفرع الليننغرادي من « اتحاد الكتاب السوفيات » كما اتيحت له فرصة القيام بدور فعال في شؤون لينغراد الادبية . باي الاسباب تأذنون لزوتشنكو ان يمرح على هواه في حدائق الادب الليننغرادي وجناته ؟ لماذا سمح في لينغراد اعضاء الحزب الناشطون ، وسمح « اتحاد الكتاب » الليننغرادي ، لمثل هذا الحدث الشائن ان يقع في حياتنا ؟

ان وجه زوتشنكو — هذا الوجه المتهرىء الفاسد حتى الصميم اجتماعاً وادباً وسياسة ، ليس نتيجة تحول قريب العهد . وان مؤلفاته الاخيرة ليست البتة ظاهرة طارئة . انها ليست سوى تكملة لـ « تراثه » الادبي الذي بدأ في الربع الاول من هذا القرن .

من كان زوتشنكو في الماضي ؟ واحداً من مؤسسي الجماعة الادبية المعروفة بـ « الاخوة سرابيون » . ماذا كان يشبه زوتشنكو من الناحية الاجتماعية والسياسية عهد تأسيس « الاخوة سرابيون » ؟ اسمحوا لي ان اعود الى الجريدة « ليتراتورنيه زابيسكي » (ملحوظات ادبية) ، العدد الثالث عام ١٩٢٢ ، وهو العدد الذي

اذاع فيه مؤسسو هذه الجماعة عقيدتهم . تحوي هـــذه الجريدة في جملة ما تحوي من كشوف « عقيـــدة » زوتشنكو كما بسطها في فصل عنوانه : « نفسي وبضعة اشياء اخرى » . ترى زوتشنكو ، دونما ارتباك ، علناً يعرض ذاته ويجاهر بـ « آرائه » السياسية والادبية ، صريحاً غاية الصراحة . اسمعوا ما يقول :

« بوجه عام ، صعب على المرء جداً ان يكون كاتباً . خذ مثلا هذه القضية المشهورة — قضية العقيدة الفكرية . الكتاب اليوم مطالبون بان تكون لهم عقيدة فكرية . فيالها من مجلبة للازعاج والتكدير !

« قل لي كيف يمكنني ان تكون لي عقيدة فكرية معينة وقت لا يستميلني كل الاستمالة حزب من الاحزاب.

« انا بالقياس الى وجهة نظر الاعضاء الحزبيين ، لست رجل مبدأ . استطيع ان اقول فيما يتعلق بي : انني لست شيوعيا ، كلا ولا اشتراكياً ثورياً ، ولا ملكياً. انا — بكل بساطة — روسي . وفوق ذلك ، انا في السياسة لااخلاقي .

« اقول — وانا امين لما اقول : لا اعـلم الى اي حزب ينتمي ، مثلا غوشكوف . الشيطان وحده يعلم

الى اي حزب ينتمي الرجل . اعلم انه ليس بلشفياً ، لكني لا اعلم هل هو اشتراكي ثوري ام « كاديت » ، ولا يهمني ان اعلم » . الخ .. الخ ..

فما رأيكم ، ايها الرفاق ، في هذا النحو من «التفكير» ؟ لقد انقضت خمس وعشرون سنة على يوم طبع زوتشنكو هذا « الاعتراف » . فهل تبدل منذ ذلك اليوم ؟ كلا ، لم يتبدل بمقدار ملحوظ . لم يتعلم شيئاً في السنين الخمس والعشرين الاخيرة ، ولا تغير بوجه من الوجوه . بل على العكس ، بقي على صراحته الهازئة داعية فراغ وابتذال . بقي في الادب عربيداً لا مبدأ له ولا ضمير . يعني هذا ان زوتشنكو في حاضره ، كماضيه ، لا يعير اهتماماً للنهج السوفياتي . هو اليوم ، كما كان في الامس ، غريب عن الادب السوفياتي وخصم له . فاذا كان زوتشنكو — برغم هذا كله — قد اصبح شبه كوكب ادبي في لينغراد ، اذا كان قد جرى التغني بمدحه في برناس لينغراد ، فليس بوسعنا نحن الا ان نعجب لذلك الموقف الذي لا مبدأ فيه ولا مطالبة ولا تمييز — مبدأ اولئك الناس الذين مهدوا لزوتشنكو الطريق وتغنوا بمدحه .

ائذنوا لي ان أتلو شاهداً آخر يدل على ما كان عليه اولئك المسمون بـ « الاخوة سرابيون » . في العـــدد نفسه من مجلة « ليتراتورنيه زابيسكي » (ملحوظـات ادبية) ، – اعني العدد الثالث عام ١٩٢٢ – يحاول ليف لونتس ، وهو سرابيوني آخر ، محاولة زوتشنكو ان يشرح الاساس العقائدي الذي يستنـــد اليه « الاخوة سرابيون » والذي يزدوج بذلك التيـار المضر الغريب عن الادب السوفياتي . قال لونتس :

«لقد اجتمعنا في وقت عظم فيه التوتر السياسي والثوري، ومن ليس معنـا فهو علينا – هكذا سمعنا من كل صوب . ففي اي جانب انتم ايها الاخوة سرابيون : مع الشيوعيين ام عليهم ؟ مع الثورة ام عليها ؟

« وعلى هذا ففي اي جانب نحن الاخوة سرابيون ؟ نحن في جانب الناسك سرابيون !...

« لقد هيمنت الاوساط العامة على الادب الروسي هيمنة اطول مما يجب ، واوجع مما يجب . لسنا نرتضي الاخذ بمبدأ النفع . لسنا نكتب دعـاية . الفن حقيقي كالحياة نفسها . وكالحياة لا غاية للفن ولا مغزى . يوجد الفن لانه لا بد له من الوجود . »

ذلك هو الدور الذين قسطه « الاخوة سرابيون » للفن . عطلوه من كل محتوى له صلة بالعقيدة ، جردوه من المعنى الاجتماعي ، اعلنوا للفن طبيعة تنافي العقيدة، وان الفن انما هو لذات الفن لا غاية له ولا مغزى . وما هذا كله سوى كرز بالحذلقة والتفاصح والابتذال . ما هذا سوى انعدام لليقين والايمان السياسي .

وبعد فالى اي استنتاج يقودنا هذا ؟ اذا كان زوتشنكو لا يحب النهج السوفياتي ، فهم تنصحون لنا ؟ هل تنصحون لنا ان نكيف انفسنا وفاقاً له ؟ ليس يقع علينا نحن ان نبدل اذواقنا — ان نغير حياتنا ونظامنا بما يلائم زوتشنكو . فليغير هو ما بنفسه . فاذا كان يأبى ، فليخرج هو من سرب الادب السوفياتي. يستحيل ان يكون مجال في الادب السوفياتي للمؤلفات الجوفاء المبتذلة .

ومن هنا كان ان اتخذت اللجنة المركزية ما اتخذت من مقرراتها فيما يتعلق بالصحيفتين : «زفيزدا » و «لننغراد».

بعد هذا ، انتقل الى « عمل » آنّا اخماتوفا الادبي. لقد اتيح لمؤلفاتها في الاونة الاخيرة ان تظهر في صحف لننغراد على سبيل « زيادة الانتاج » . وانه لشيء يدعو

الى الدهشة ، شيء غير طبيعي ، كأن يفكر امرؤ اليوم في اصدار طبعات جديدة من مؤلفات مريجكوفسكي وفياشيسلاف ايفانوف وميخائيل كوزمين واندريه بيلي وزينايدا هيبيوس وفيودور سولوغوب وزينوفيافا — انيبال وغير هؤلاء ، اعني جميع الكتاب الذين اعتبرهم دائماً جمهورنا الراقي ، واعتبرتهم اوساطنا الادبية الراقية ، ممثلين للجهل والتخليط الرجعي والنكوص والارتداد في السياسة والادب .

كان غوركي في وقته يقول ان السنين العشر بين ١٩٠٧ و١٩١٧ تستحق ان تدعى اجدب الحقب واشدها عاراً في تاريخ المثقفين الروس. تلك حقبة بعد ثورة ١٩٠٥، تحول فيها رهط كبير من المثقفين عن قبلة الثورة وانزلقوا الى وحلة الصوفية الرجعية والادب الخلاعي وجعلوا الفراغ لواءً لهم وستروا تراجعهم بستار من العبارة « الجميلة » : « وأنا دفعت الى النار بكل شيء كنت احترمته ، واحترمت كل شيء كنت دفعت به الى النار » . في هذه السنين العشر ، ظهرت مؤلفات مرتدة كمؤلف روبشين : « الجواد الاصفر » ومؤلفات فينشنكو وسائر الفراريين من معسكر الثورة الى

معسكر الرجعية ، اولئك الذين اسرعوا فانزلوا عن العرش تلك المثل الرفيعة التي من اجلها كان يجاهد خير ممثلي المجتمع الروسي واكثرهم تقدماً . عهدئذ ، طفا على السطح انحطاطيون من كل لون : رمزيون وادباء يقوم ادبهم على الانهماك بالصور ، هجروا الشعب ونادوا بمبدأ الفن لذات الفن وكرزوا بخواء الادب وسدلوا على تهرؤهم في الخلق والعقيدة ستاراً من السعي وراء القالب الجميل الفارغ من كل مضمون . كانوا جميعهم متماسكين يوحد بينهم ذعر حيواني من الثورة البروليتارية المقبلة . حسبي ان اذكركم بميرجكوفسكي ، وهو من ابرز هؤلاء « المفكرين » ممثلي هذه النزعات الادبية الرجعية . لقد دعا الثورة البروليتارية المقبلة بـ « الوحش الذي يدنو » ، وقابل الانقلاب السوفياتي بغضب حيواني .

وحنة اخماتوفا هي في طائفة من يمثلون هذه الحمأة الادبية الرجعية التي خلت من كل فكر . تنتمي اخماتوفا الى الجماعة الادبية المسماة بـ « جماعة الاخميين » . انبثقت في وقتها من صفوف الرمزيين وراحت ترفع فيمن يرفعون لواء الشعر الصالوني الارستوقراطي الأجوف

الخاوي : شعر غريب الغرابة كلها عن الادب السوفياتي .
مثّل الاخميون نزعة فردية متطرفة في الفن . كرزوا بمبدأ « الفن لذات الفن » و « الجمال لذات الجمال » ولم يأبهوا لمعرفة شيء عن الشعب ، حاجاته ومصالحه ، وعن الحياة الاجتماعية .

كانت تلك في الادب نزعة بورجوازية ظهرت وقت كانت ايام الارستوقراطيـة البورجوازية معدودات ، وقت كان شعراء الطبقات الحاكمة ومفكروهم يحاولون ان يختبئوا عن الحقيقة المزعجة في سحاب وضباب من الصوفية الدينية ، وفي اختبارات ذاتية خسيسة تافهة ، وفي امتصاص واجترار لنفوسهم الصغيرة . وكالرمزيين والانحطاطيين وسائر ممثلي الفكر البورجوازي الارستوقراطي المتفسخ ، كان الاخميون يكرزون بالانهزامية والتشاؤمية ويبشرون بالايمان بحياة اخرى (على سبيل التعويض طبعاً ! — المعرب) .

كل مادة مواضيع اخماتوفا فردية حتى الصميم . والمدى الذي يتناوله شعرها محـدود ضيق على صورة محزنة . شعرها شعر امرأة ارستوقراطية مدلعة تتأرجح تأرجحاً محموماً بين مخدعها وكنيستها . توكيدها الرئيسي

على مواضيع الحب الجنسي يتخللها نغم كآبة وتحرق وفناء وصوفية واستسلام للاقدار . أجل : شعور استسلام للاقدار (شعور مفهوم جداً لدى جماعة مضمحلة) ونغم قاتم يعزفه قنوط يسبق الموت ومراس صوفي مخلوط بالعشق الشهواني — ذلك هو عالم اخماتوفا الروحي ، اخماتوفا احدى بقايا عالم الارستوقراطية القديم الذي اندثر الى غير رجعة ، عالم « الأوقات السعيدة الماضية عهد كاترين » . صعب على الانسان ان يعرف عن اخماتوفا هل هي راهبة او امرأة داعرة . لعل الافضل ان يقال انها شي من كلتيهما تمتزج شهوتها بصلواتها .

على أني اقسم بجنة الملائكة
وللايقونة العجائبية انذر ،
وانذر لطفل شهوتنا

(أنو دوميني « عهد السيد المسيح » لأخماتوفا)

تلك هي اخماتوفا بحياتها الشخصية الضيقة التافهة ، واختباراتها الحسيسة وشهوانيتها الصوفية المتدينة .

شعر اخماتوفا منقطع الصلة انقطاعاً بعيداً عن الشعب . هو شعر العشرة الآلاف نخبة المجتمع في روسيا الارستوقراطية القديمة ، اولئك الآلاف العشرة الذين

آذنت ساعتهم منذ عهد طويل ، فلم يبق لهم ما يصنعون الا ان يتلهفوا على « الاوقات الماضية الطيبة » : على مزارع الاقطاعيين زمن كاترين بما فيها من معابر تنتسق على جانبها اشجار الزيزفون ، ومن نوافير وتماثيل وقناطر حجر ومنازل خضراء وخيام للغرام ودروع رثة . لم يبق لهم الا ان يتلهفوا على سان بطرسبورغ الارستوقراطية ، وتزارسكويه سيلو ومحطة السكة الحديد في بافلوفسك وسائر آثار ثقافة النبلاء . على ان تلك كلها امور توارت في الماضي الذي لا بعث له . وهؤلاء القلة الذين يمثلون تلك الثقافة الغريبة جداً عن الشعب ، هؤلاء القلة الذين فضلوا باعجوبة من الاعاجيب حتى يومنا ، لا يقدرون على فعل شيء الا ان يقفلوا ذواتهم على ذواتهم ويعيشوا بالرؤى الباطلة . « لقد سلب كل شيء . راح ضحية الخيانة وبيع بيعاً » — هكذا تقول اخماتوفا .

قبل الثورة باجل غير طويل ، كتب أوزيب مندلستام من ممثلي الاخمية البارزين ، كتب في المثل الاجتماعية والسياسية والادبية التي تأخذ بها هذه الجماعة الضئيلة ، قال : « يذهب الاخميون في حب المركب الحي

والتركيب مذهب العصور الوسطى البانية على الكمال البدني ... » . « كان للعصور الوسطى اسلوب خاص في تقويم ما للانسان من قيمة نسبية . وبأسلوبها هذا كانت العصور الوسطى تتحسس وتعرف قيمة كل فردٍ ، دونما اعتبار البتة لجداراته ... » . « أجل ، لقد عبرت اوروبا في تيه من ثقافةٍ بديعة دقيقة كصياغة السبائك الذهبية ، يوم ان كان مطلق الوجـود ، الوجود الذاتي المحض الذي لا تزويق فيه ولا زخرف ، يعتبر انجاز عمل بارز له وزنه . ومن هنا نشأت الالفة الارستوقراطية التي تربط بين كل الناس وهي بعيدة جداً عما في الثورة العظمى من روح وإخاء ومساواة ، ... » . « انما العصور الوسطى عزيزة علينا لأنها كانت ممتعة بحس متطور حتى درجة بعيدة — حس يقدر الحـدود والفواصل ... » . « ان مزيجاً نبيلاً من العقلانية والصوفيـة والنظر الى العالم من حيث هو توازن حي — كل ذلك يحملنا على الشعور بقربى من هذه العصور ، كما يوحي الينا استمداد القـوة من الآثار التي انبثقت من تربة عهـد القصص الغرامي حوالى السنة ١٢٠٠ » .

ان عبارات مندلستام هذه لتشتمل على آمال الاخيين

ومثلهم . « رجوعاً الى القرون الوسطى » — هكذا يعزف زوتشنكو .. وبالمصادفة ، ان الاخميين والاخوة سرابيون لمن نسب واحد . والجد المشترك بين الاخميين والاخوة سرابيون هو هوفمان أحد مؤسسي الانحطاط الارستوقراطي الصالوني والصوفية الارستوقراطية الصالونية .

أفكان ثمة من حاجة الى تعميم شعر اخماتوفا على هذه الصورة المفاجئة . ما شأنها والشعب السوفياتي ؟ وما الحاجة الى بذل منبر ادبي لكل هذه الاتجاهات الادبية الانهزامية الغريبة ؟

نعلم من تاريخ الادب الروسي ان الاتجاهات الادبية الرجعية التي انتمى اليها الرمزيون والاخميون ، قد حاولت المرة بعد المرة ان تشنها حملة صليبية على تقاليد الادب الروسي الثورية الديموقراطية العظيمة ، وعلى اوجه ممثلي هذه التقاليد . ونحن نعلم ان هذه الاتجاهات الادبية الرجعية قد حاولت ان تجرد الادب من معناه الفكري والاجتماعي ، لتسيخ به في حمأة الفراغ والابتذال . على ان كل هذه الاتجاهات التي كانت « ازياء » قد غابت واندفنت مع الطبقات التي كانت تمثل تفكيرها . اجل — كل هؤلاء الرمزيين والاخميين و « القمصان الصفر »

و « يعاقيب الالماس » واللاشيئيين — ما الذي بقي منهم في ادبنا السوفياتي ؟ لم يبق لهم من اثر البتة . بضجيج وادعاء شنوا حملاتهم الصليبية على كبار ممثلي الادب الثوري الديموقراطي الروسي من بيلنسكي الى دوبروليوبوف الى تشرنيشفسكي الى هرزن الى سالتيكوف — تشدرين ، فأخفقت تلك الحملات اخفاقاً ليس اقل ضجيجاً .

اعلن الاخميون شعارهم على الصيغة الآتية : لا نبغي تحسين الحياة بطريقة من الطرق . ولا نريد الانهماك في انتقاد الطريقة الحاصلة ... فعلام كانوا يخالفون تحسين الحياة بوجه من الوجوه ؟ لانهم كانوا يحبون هذه الحياة القديمة الارستوقراطية البورجوازية فيما كان اهل الثورة يستعدون لاقلاق هذه الحياة . وفي تشرين الثاني ، سنة ١٩١٧ ، تم طرح الطبقات الحاكمة ومفكريهم وشعرائهم في سلة مهملات التاريخ .

واليوم ، على حين فجأة ، بعد مضي تسع وعشرين سنة على الثورة الاشتراكية ، تعود بعض قطع متحفية الى الظهور من دنيا الاشباح لتأخذ في تعليم ناشئتنا كيف الحياة ، وتتاح لاخماتوفا صفحات جريدة لينغرادية

على مداها ، ويؤذن لاخماتوفا ان تسمم كما تختار عقول ناشئتنا بروح شعرها القتالة .

هنـاك عدد من اعداد الجريدة « لينغراد » يشتمل على شيء اشبه بخلاصة لمؤلفات اخماتوفا التي كتبتها بين عامي ١٩٠٩ و١٩٤٤ . في جملة هذه التفاهات ، قصيدة كتبتها اثناء الجلاء ابان الحرب الوطنية العظمى ،تتحدث فيها عن وحشتها — تلك الوحشة التي اكرهت على قضائها مع قطة سوداء تشبه عيناها عيون العصور مطلة على اخماتوفا . وهذا المزاج المستوحش القانط ، الغريب عن الادب السوفياتي ، انما يسري خلال مؤلفات اخماتوفا كلها.

فاي شيء مشترك يكون بين هـذا الشعر ومصالح شعبنا ودولتنا ؟ لا شيء البتة ! ان شعر اخماتوفا لشأن من شؤون الماضي البعيد . شعرها اجنبي عن الحياة السوفياتية ، فلا يمكن ان يطاق على صفحات جرائدنا . ليس ادبنا مشروعاً خاصاً يراد به ارضاء مختلف الاذواق في السوق الادبية . يقيناً ، لسنا مضطرين ان نفسح مجالا في ادبنا لاذواق واساليب لا شركة بينهـا وبين اخلاق الشعب السوفياتي وميزاته . فاية غنيمة تثقيفية تستطيـع ان تجنيها ناشئتنا من ادب اخماتوفا ؟ لا تستطيع ناشئتنا

ان تجني من هذا الادب إلا الاذى . ذلك ادب ليس في طاقته الا ان يزرع السوداوية ، وتثبيط الهمم والتشاؤم ، والرغبة في الفرار من قضايا الحياة الاجتماعية الهامة ، والشهوة الى الانصراف عن جادة الحياة الاجتماعية والعمل الاجتماعي الى عالم صغير ضيق من الممارسات الشخصيـة . فكيف يسوغ ان يعهد لاخماتوفا بتربيـة ناشئتنا ؟ ومع هذا ، سرعان ما كانت تنشر قصائد اخماتوفا ، مرة في « زفيزدا » ومرة في « لننغراد »، بل فوق ذلك لقد نشرت قصائدها في مجلدات خاصة . تلك كانت غلطة سياسية خطيرة .

فطبيعي جداً ، بالنظر الى هذا كله ، ان يأخذ كتاب آخرون بلهجة تدل على الفراغ والانهزامية ، ثم طبيعي ان تبدأ مؤلفات هؤلاء بالظهور على صفحات جرائد لننغراد.

أقول هـذا ، والذهن يذهب بي الى تآليف مثل تآليف سادوفياف وكوميساروفا ، وكلاهما في بعض قصائده يقـلد اخماتوفا ، عاملا على رعرعة مزاج القنوط والضجر والوحشة — هذا المزاج الحبيب الى قلب اخماتوفا .

وليس يحتاج الى بيان ان مثل هذا المزاج ، او اطراء مثل هذا المزاج ، لا يمكن إلا ان يفعل في ناشئتنا فعلا سلبياً : يسمم اذهانهم بالروح الرذلة ، وروح الفراغ

والقنوط واللامبالاة السياسية .

ترى ماذا كان حدث لو اننا ربينا ناشئتنا على روح القنوط وانعدام الايمان بقضيتنا ؟ ماذا كان حدث لو اننا لم نكسب الحرب الوطنية العظمى ؟ انما استطعنا ان ننتصر على المصاعب الهائلة التي اعترضتنا في بناء الاشتراكية وقهر الالمان واليابان ، لان الدولة السوفياتية وحزبنا قد ربيا ناشئتنا ، بمساعدة الادب السوفياتي ، تربية قوامها روح التفاؤل وثقة الشباب بقوتهم . فما معنى ذلك ؟ معناه ان جريدة « زفيزدا » حين نشرت على صفحاتها آثاراً أدبية تعوزها الافكار الصالحة — آثاراً ادبية مبتذلة رجعية — الى جانب آثار ادبية اخرى غنية في محتواها بهجة في لهجتها ، تحولت « زفيزدا » جريدة لا نهج لها محدد تعين اعداءنا على افساد شبابنا . انما انحصرت قوة جرائدنا دائماً في اتجاهها الثوري المتفائل ، لا في تقميش الاشياء من هنا وهناك ، ولا في الخواء او اللامبالاة السياسية . لقد وافقت « زفيزدا » موافقة تامة على الدعاية في سبيل اللاعمل . وزيادة في تسوية الامور ، يبدو ان زوتشنكو احرز في جمعية الكتاب اللننغراديين سلطة اصبح معها يستطيع ان ينفجر صائحاً

بمن يخالفونه وان يهدد نقاده بهجائهم في مؤلف من مؤلفاته المقبلة . صار زوتشنكو الى شيء من ديكتاتور ادبي تحيط به جماعة من المعجبين به تتغنى بمدائحه .

فللمرء اذن ان يتساءل بحق : ما اسباب ذلك ؟ علام اذنتم ان يقع مثل هذا الحدث الرجعي غير الطبيعي ؟

ليس مدعاة للعجب ان جرائد لننغراد الادبية اخذت تفسح مجالا للادب الغربي « البورجوازي » الرخيص واخذ بعض رجال الادب عندنا ينزلون انفسهم منزلة التلاميذ لصغار الكتاب البورجوازيين ، لا منزلة المعلمين . اجل ، اخذ بعض رجال الادب عندنا يلهجون بلهجة التملق والتعظيم للادب الاجنبي . فهل يليق بنا مثل هذا التخشع نحن المواطنين السوفيات الذين شيدوا النظام السوفياتي ، ارقى من كل نظام بورجوازي ايا كان ، وافضل منه ، مائة مرة . هل يليق مثل هذا التخشع ، لدى الادب البورجوازي المتحذلق الضحل ، بادبنا السوفياتي المتقدم ، وهو اعظم الآداب ثورية في الدنيا ؟

ومن النقائص الخطيرة في عمل ادبائنا انهم يقفون بمنحى عن المواضيع السوفياتية الحديثة ، يظهرون

من جهة اهتماماً بالمواضيع التاريخية ، ومن جهة اخرى حرصا على الانشاء في مواضيع فارغة لها طابع التسلية الصرف . وتبريراً لهذا القصور منهم عن المواضيع السوفياتية الحديثة العظيمة ، ينصرف بعض الكتاب الى القول : لقد ازف وقت نعطي فيه الشعب ادباً فارغاً مسلياً، ازف وقت نمسك فيه عن اقامة اعتبار لمحتوى الادب الفكري ... وتلك نظرة الى شعبنا ضالة جداً . تلك نظرة خاطئة جداً في تقدير مطالب شعبنا ومصالحه . ان شعبنا لبانتظار الادباء السوفيات ان يستوعبوا ويصبوا الاختبارات العظيمة التي تمرس بها الشعب في غمرة الحرب الوطنية الكبرى وان يصوروا ويؤلفوا البطولة التي يبذلها الشعب اليوم جاهداً في تعمير الاقتصاد الوطني .

ثم لا بد من كلمات يسيرة اقولها في الصحيفة : « لننغراد » . هنا في هذه الجريدة يبدو مركز زوتشنكو اوطد من مركزه في « زفيزدا » . كذلك يبدو مركز اخماتوفا . لقد اصبح زوتشنكو واخماتوفا قوتين ادبيتين ناشطتين في كلتا الجريدتين . فـ « لننغراد » اذن مسؤولة ان تكون جعلت صفحاتها تحت تصرف كتاب

رخيصين امثال زوتشنكو وشاعرات صالونيات امثال اخماتوفا .

ولكن « لننغراد » الجريدة ارتكبت اغلاطاً اخرى .

اليكم مثلا هـذه المعارضة لـ « اويجين اونغين » كتبها فلان ما من الناس يدعى خازن . وقـد سمى قطعته « عودة اونغين » . ويقال انهـا كثيراً ما تتلى على مسارح لننغراد . وانه لصعب على المرء ان يفهم لم يأذن اهل لننغراد ان تلوث سمعة مدينتهم ، من على منبر عـام ، بهذه الصورة التي يلوثها بها خازن . ليس المقصود بهذه الاهجية سخرية بمجرد الشؤون البسيطة التي تعرض لاونغين اذ يجد نفسه في لننغراد الحديثة . ان مدار الامر ان خازن يحاول ان يقابل بين لننغرادنا الحديثة وسان بطرسبرج على عهد بوشكين ، وبالتالي يحاول ان يدلي ببرهان ان عصرنا أردأ من عصر اونغين . فاقرأوا ولو بضعة ابيات من هذه « المعارضة » على انتباه ، تجدوا المؤلف لا يرضى عن شيء في لننغراد الحديثة . إنه ليشخر خبثاً وسخرية ، ويشنع على الشعب السوفياتي وعلى لننغراد. في رأي خازن هذا ان عصر اونغين كان عصراً ذهبياً . اما الآن فقد تبدل كل شيء . اصبحت لمنازل

السكنى دائرة رسمية مخصوصة واستحدثت الرخص وبطاقات التقنين . وانصرفت الصبايا ـ تلك المخلوقات الاثيرية التي يعجب بها اونغين اعجابا فائقاً ـ الى مراقبة السير وترميم منازل لننغراد وسوى ذلك . ائذنوا لي ان اتلو عليكم مقطعاً واحداً ـ لا اكثر ـ من هذه « المعارضة » :

ركب عزيزنا المسكين اويجين
حافلة ترام
لم يعرف البتة عصره المغشى بالظلام
وسيلةً كهذه من وسائل النقل .
على ان القدر كان رفيقاً باويجين
فقد نجا غير مصاب الا بدهسة في قدمه
ولم يدع غبياً ابله إلا مرة واحدة
حين وكزه باليد رجل ما في معدته
واذ خطرت بباله التقاليد القديمة
عزم على استنقاذ كرامته بطلب المبارزة
فسرعان ما رد يده الى جيبه ، لكن شخصاً ما
كان قد سبقه الى نشل قفازه
فكانت صدمة هبطت باويجين
الى الصمت والاذعان !

تلك اذن هي حالة لننغراد في الماضي وهذه اذن هي الحالة التي آلت اليها : مدينة رثة فظة غير مثقفة . أجل ، وذلك هو المشهد الذي وجدها عليه اونغين العزيز المسكين . وهكذا ، على هذه الصورة الرخيصة ، يمثل خازن لننغراد وشعب لننغراد .

ان الفكرة التي تصدر عنها هـذه المعارضة المهينة ، لفكرة مؤذية شريرة مزورة .

فكيف امكن هيئة تحرير جريدة « لننغراد » ان تقبل هذا التشنيع الخبيث على لننغراد وشعبها الرائع . كيف تسنى لخازن ان يظهر مطبوعاً على صفحات جرائد لننغراد .

خذوا مؤلفاً آخر : معارضة على معارضة لنكراسوف ، انشأها مؤلفها على صورة تشكل اهانة مباشرة مسددة الى ذكرى هذا الشاعر العظيم والعَلَم الوجيه ، إهانـة ينبغي لها ان تثير غضب كل مثقف . ومع ذلك فهيئة تحرير الجريدة « لننغراد » سرعان ما نشرت هذه التلفيقة القذرة على صفحاتها .

ثم ماذا نجد كذلك في جريـدة « لننغراد » ؟ نادرة اجنبية سطحية مبتذلة ، يظهر ان اخذت من كتب نوادر

بالية يرجع عهدها الى القرن المنصرم . أفليس من مادة اخرى تملأ بها جريدة « لننغراد » صفحاتها ؟ أفليس حقاً من شيء يكتب عنه في جريدة « لننغراد » ؟ ما قولكم في موضوع كموضوع تعمير لننغراد ؟ ان عملاً رائعاً يقوم في المدينة على قدم وساق . انها لتشفي الجراح التي اصيبت بها في الحصار . وشعب لننغراد يزخر حماسة وثورة عواطف في سبيل التعمير بعد الحرب . فهل كتب شيء في هذا الموضوع في جريدة « لننغراد » . ترى هل يعيش أهل لننغراد حتى يوم يرون صدى لروائع عملهم في صفحات هذه الجريدة ؟

وبعد ، فلنلتفت الى موضوع النساء السوفياتيات ؟ فهل يؤذن أن تذاع في القراء السوفيات آراء معيبة ، كاراء اخماتوفا ، تتعلق بدور المرأة ورسالتها ؟ هل يؤذن ذلك ، بينما لا تذاع نظرة حقاً صحيحة الى المرأة السوفياتية الحديثة ، عامة ، والى فتيات لننغراد ونسائها البطلات ، خاصة ، وهن قد حملن على اكتافهن دونما تخاذل اعباء سنوات الحرب الثقال ، ثم هن اليوم يعملن مضحيات لتتميم الواجبات الشاقة التي يوجبها تعمير حياة المدينة الاقتصادية .

يظهر ان فرع لننغراد من اتحاد الكتاب السوفيات هو اليوم على حالة لا يتوفر معها مقدار من مؤلفات صالحة لتموين صحيفتين ادبيتين . لهذا قررت لجنة الحزب المركزية اقفال الصحيفة « لننغراد » ، ليتيسر انصباب خير القوى الادبيـة على الصحيفة « زفيزدا » . لكن هذا لا يعني ان مدينة لننغراد لا يكون لها في الظروف المناسبة صحيفة ثانية ، بل حتى ثالثة . ان شأنا كهذا انما يقرره مقدار المؤلفات الادبية البارزة ، فاذا كان ما ينتج من هذه المؤلفات موفوراً بحيث لا تتسع له جريدة واحدة ، افتتحنا عندئذ جريدة ثانية بل ثالثة . كل شيء يتوقف على ما تتصف به المؤلفات التي ينشئها كتابنا اللننغراديون من جودة فكرية وفنية .

تلك هي الاخطاء والنقائص الجدية التي بسطتها ولفتت اليها النظر مقررات لجنة الحزب الشيوعي المركزية فيما يتعلق بعمل الصحيفتين « زفيزدا » و « لننغراد » .

فما سبب هذه الاخطاء والنواقص ؟

سببها ان محرري الصحيفتين المذكورتـين ، رجال أدبنا السوفياتي ، شأنهم في ذلك شأن قادتنا العاملين على الجبهة الفكرية في لننغراد قد نسوا بعضاً من اصول

اللينينية الرئيسية فيما يتعلق بالادب . ان جملة من الكتاب وجملة ممن يعملون محررين مسؤولين او يشغلون مناصب هامة في « اتحاد الكتاب » يعتقدون ان السياسة شغل الحكومة ، شغل اللجنة المركزية . أما رجال الأدب فليس من شأنهم ممارسة السياسة . فاذا سطر امرؤ شيئاً فاجاده من جهة الفن والحلاوة ، فيجب نشر ما سطره برغم انه يشتمل على مادة خبيثة تشوش عقول شبيبتنا وتسمها .

اننا نوجب على رفاقنا — من يشغلون منهم المناصب الادبية القيادية ومن يكتبون سواء بسواء — ان يسترشدوا بما لا حياة دونه للنظام السوفياتي ، اعني السياسة . ذلك حرصاً على تنشئة جيلنا الجديد على روح ثورية متفائلة ، لا روح اللامبالاة والجمود .

نعلم ان اللينينية تشتمل على اجمل تقاليد الديموقراطيين الثوريين الروس في القرن التاسع عشر ، وان ثقافتنا السوفياتية تستمد وتغتذي من تراث الماضي الثقافي الذي تهضمه هضما مبنياً على النخل والنقد . وقد سبق لحزبنا في حقل الادب ان اقر بلسان لينين وستالين ذلك الدور العظيم الذي كان للكتاب الديموقراطيين

الثوريين الروس العظام - بيلنسكي ودوبروليوبوف وتشرينشفسكي وسالتيكوف تشدرين وبليخانوف . فاذا ابتدأنا ببيلنسكي ، وجدنا صفوة ممثلي المثقفين الروس الديموقراطيين الثوريين قد شجبوا «الفن الصرف» و «الفن لذات الفن» ونادوا بالفن للشعب مطالبين بان تكون له رسالة تهذيبية اجتماعية . لا يستطيع الفن ان ينقطع بنفسه عن مصير الشعب . تذكروا رسالة بيلنسكي الشهيرة التي كتبها الناقد العظيم ، بما فطر عليه من حماسة خاصة ، موبخاً غوغول اذ حاول خيانة قضية الشعب والانحياز الى جانب القيصر . وقد نعت لينين هذه الرسالة بانها من ابدع الفصول التي نشرتها الصحافة غير المراقبة ، وقد حافظت على مغزاها الادبي العظيم حتى يومنا هذا .

تذكروا فصول دوبروليوبوف - تلك الفصول التي جلا فيها بقوة مغزى الادب من الناحية الاجتماعية . صحافتنا الروسية الثورية الديموقراطية كلها مشحونة حقداً مميتاً على النظام القيصري ، ومشربة طموحاً نبيلا الى النضال في سبيل مصالح الشعب الاساسية واستنارته وثقافته وانعتاقه من اغلال النظام القيصري . فن نضالي

يتجند للمكافحة في سبيل اصفى مثل الشعب – ذلك ما كان يفهمه بالادب والفن كبار ممثلي الادب الروسي . ان تشرينشفسكي الذي كان اقرب الاشتراكيين الطوبيين الى الاشتراكية العلميـة ، تشرينشفسكي الذي كانت مؤلفاته « توعز » بروح النضال الطبقي ، لقننا ان الفن – بالاضافة الى معرفة بالحياة يؤديها – انما ينبغي له ان يعلم الشعب كيف يقدر القدر الصحيح شتى المظـاهر الاجتماعية – ودوبروليوبوف ، الصق صديق به ورفيق في السلاح ، قد دل على « ان الادب هو الذي يكيف نفسه لمجاري الحياة ، وليست الحيـاة هي التي تمتثل للمقاييس الادبية » ونصر دوبروليوبوف مبادىء الواقعية ومبدأ الشعور القومي في الادب ، معتبراً ان الحيـاة قاعدة الفن وينبوع العمل الابداعي ، وان الفن يقوم بدور فعال في الحياة الاجتماعية وفي سبك الوعي الاجتماعي ببوتقة ذات شكل . حتم على الأدب ، وفاقاً لرأي دوبروليوبوف ، ان يخدم المجتمع . حتم عليه ان يلبي الشعب بأجوبة عن اشد مشاكل الوقت الحاحاً . حتم عليه ان يكون ناهضاً الى مستوى أفكار عصره .

وان النقد الادبي الماركسي ، الذي يتابع تقاليد

بيلنسكي وتشرنيشفسكي ودوبروليوبوف العظيمة ، قد دعا دائماً الى تعزيز الفن الواقعي باتجاه اجتماعي . وما اكثر ما فعل بليخانوف في سبيل كشف الستار عن النظرة المثالية غير العلمية الى الادب والفن ، ثم في سبيل الدفاع عن المبادىء الاساسية التي اخذ بها ديموقراطيونا الثوريون العظام الذين أفهمونا ان نرى في الادب اداة قوية من ادوات خدمة الشعب .

كان لينين اول من شرح شرحاً واضحاً ما يجب ان يتخذ الفكر الاجتماعي التقدميّ من موقف ازاء الادب والفن . ائذنوا لي ان اذكركم بفصله الشهير : « التنظيم الحزبي والادب الحزبي » . وهو فصل أنشأه في ختام عام ١٩٠٥ ، ابان فيه بقوة التعبير التي تفرد بها ، ان الادب يستحيل ان يكون بلا ولاءٍ حزبي وان واجبه ان يكون جزءاً هاماً من القضية البروليتارية العامة . ان جميع الاصول التي ينبني عليها تطور ادبنا السوفياتي ونموه لموضوعة في هذا الفصل .

كتب لينين : « ينبغي للادب ان يرتبط بالحزب . لكي تمكن معارضة العادات البورجوازية ، والصحافة البورجوازية التجارية ، والفردية البورجوازية ، والاحتراف

والفوضوية الجنتلمانية ، والتهالك على قنص الربح — لكي يمكن هذا كله يجب على البروليتاريا الاشتراكية ان تنبري بمبدأ الادب الحزبي ، وتزكي هذا المبدأ وتضعه موضع التطبيق في اتم صيغه واشدها تماسكا ووحدة .

« فما هو مبدأ الادب الحزبي هذا ؟ ليس في نظر البروليتاريا الاشتراكية وحدها يستحيل على الادب ان يكون وسيلة ربح للافراد او الفئات . الادب على صورة عامة يستحيل ان يكون قضية شخصية مستقلة عن القضية البروليتارية العامة . فليسقط الكتاب اللاحزبيون . ليسقط الكتاب الذين يحسبون انفسهم طينة فوق البشر . ينبغي للادب ان يصبح جزءاً من القضية البروليتارية العامة » .

ثم يستأنف لينين القول في الفصل نفسه :

« يستحيل العيش في المجتمع مع التحرر من المجتمع . ان حرية الكاتب البورجوازي او الفنان او الممثلة ليست سوى تقيد مقنع (وربما كان رياء ونفاقاً) بكيس الدراهم والرشوات والتخصيصات » .

انما تصدر اللينينية عن المبدأ التالي : ان ادبنا يستحيل ان يكون لا سياسياً ، يستحيل ان يمثل « الفن لذات

الفن » . بل هو مدعو الى القيام بدور قيادي خطير في الحياة الاجتماعية . من هذا المبدأ تنبثق القاعدة اللينينية في وجوب ولاء الادب للحزب،وهي قاعدة من اهم ما اضاف لينين لعلم الادب .

واذن ، تكون انفس صفة من صفات الادب السوفياتي انه يستمر على خير تقاليد الادب الروسي في القرن التاسع عشر ، تقاليد وضع اسسها ديموقراطيونا الثوريون العظام بيلنسكي ودوبروليوبوف وتشرنيشفسكي وسالتيكوف تشدرين ، واستأنفها بليخانوف وطورها علماً وعززهـــا لينين وستالين .

كان نكراسوف يقول : ان شعره توحي به اليه عروسة الثأر والحزن . وكان تشرنيشفسكي ودوبروليوبوف يعتبران الادب خدمة مقدسة للشعب . وقد هلك في ظل النظام القيصري خير اعلام المثقفين الديموقراطيين الروس — هلكوا في سبيل هذه الافكار السامية النبيلة وواجهوا دونما تردد احكاماً صدرت عليهم بالشغل الشاق والنفي . فكيف يمكن نسيان هذه التقاليد المجيـدة ؟ كيف يصح لنا ان نهملها ونأذن لامثـــال اخماتوفا وزوتشنكو ان يوجهوا شعار « الفن لذات الفن » ؟ كيف يسوغ لنا ان نتيح لهم تحت ستار المحايدة ان

يفرضوا علينا افكاراً غريبة عن الشعب السوفياتي .

تقر اللينينية الدور العظيم الذي يمثله الادب باعتباره اداة لاصلاح المجتمع . فاذا اذن الادب السوفياتي بان يطرأ الخلل على هذا الدور التهذيبي العظيم ، المقسوم له ، كانت النتيجة نكسة ورجعة الى « عصر الحجر » .

دعا الرفيق ستالين كتابنا مهندسي الروح البشري. وهذا تحديد له مغزاه العميق : يدل على التبعة التهذيبية الكبيرة التي يحمل عبئها الكتاب السوفيات ، كما يفصح عن مسؤوليتهم ان يدربوا الشبيبة السوفياتية ولا يتسامحوا بالادب الرديء .

يعتقد بعض الناس ان اتخاذ اللجنة المركزية مثل هذه التدابير المشددة ازاء الادب انما هو امر غريب . ونحن لم نتعود مثل هذا الامر . فساعة يؤذن بوقوع الخطأ في الانتاج الصناعي ، او ساعة لا يكتمل معدل الانتاج المقرر في البضائع المستهلكة ، او ساعة ينقص مقدار الخشب المنصوص عليه في المشروع ، فنحن نعتبر طبيعياً ان ينال المسؤولون جزاءهم من التوبيخ العلني . لكن عندما يؤذن بوقوع الخطأ فيما يتعلق بالتأثير على الارواح البشرية التأثير الصالح ، عندما يؤذن بوقوع

الخطأ فيما يتعلق بتنشئة شبيبتنا ، فهذا خطأ ممكن التساهل فيه . ومع ذلك ، اليست هذه الكأس امرّ على الجرع من نقصٍ في مقدار انتاج او من قصور عن اتمام واجب من واجبات الانتاج ؟ ان الهدف المراد من قرار اللجنة المركزية انما هو تقديم جبهة الفكر بحيث تصبح على خط يتوازى وسائر جبهات عملنا .

في الآونة الاخيرة ، بدت ثغر ونقائص خطيرة في جبهتنا الفكرية . يكفي ان اذكركم بفننا السينمائي كيف يتلكأ في المؤخرة ، وببرامج مسارحنا كيف خالطتها المؤلفات المسرحية الرديئة ، بالاضافة الى ما وقع للجريدتين « زفيزدا » و « لننغراد » . لقد اضطرت اللجنة المركزية على التدخل واصلاح الامور اصلاحاً حازماً . فليس يحق لها ان تكون رفيقة في الضرب على ايدي من ينسون واجباتهم ازاء الشعب فيما يتعلق بتنشئة شبيبتنا . فاذا شئنا ان نوجه انظار اعضائنا الى القضايا المتصلة بالعمل الفكري ، فنسوي الاشياء ونرتبها في هذا الميدان ، اذا شئنا ان نرسم نهجاً واضحاً للسير في عملنا هذا ، فينبغي لنا ان ننقد الاخطاء والنقائص في العمل الفكري نقداً قاسياً على ما هو خليق بالشعب السوفياتي ،

خليق بالبولشفيك . عندئذ وحسب نصبح قادرين على اصلاح اخطائنا .

يفكر بعض رجال الادب على النحو التالي : لان الشعب كان جوعان الى الادب زمن الحرب يوم كان ما يطبع من الكتب قليلا ، فان القاريء اليوم ليزدرد كل شيء حتى لو كان الطعم فاسداً بمقدار . لكن ليس هذا هو الواقع . ونحن لا نستطيع ان نتسامح بادب عتيق يدسه لنا تهريباً مؤلفـون ومحررون وناشرون لا يميزون . ينتظر الشعب السوفياتي من الكتاب السوفيات تسلحاً فكرياً يصح الاعتماد عليه وطعاماً روحياً يستحث اتمام مشاريع الانشاء والترميم ويضيف الى نمو اقتصادنا الوطني نمواً . يوجب الشعب السوفياتي مطالب كبيرة على رجال الادب ويرغب في ان تلبى حاجاته الفكرية الثقافية . وقد عوقتنا زمن الحرب ظروف وضعية عن ان نلبي هذه الحاجات الحيوية . ويريد الشعب ان يستوعب الحوادث الجارية استيعاب فهم . لقـد ارتفع مستواه الذهني الثقافي وكثيراً ما لا يرضى عن نوع ما يصدر في بلادنا من مؤلفات فنية وادبية . وهذا امر لايزال يجهله بعض رجال الادب عندنا ممن يعملون على الجبهة

الفكرية . بل هذا امر لا يريد بعض اولئك ان يدركوه .

لقد سمت مطالب شعبنا واذواقه الى مستوى رفيع . فمن لم يسم ، او أبى ان يسمو ، الى ذلك المستوى خلفناه وراءنا . ليس يكفي الادب رسالة ان يوازي مطالب الشعب ، بل لا بد له ان يكون ابـداً في الطليعة . حتم على الادب ان يطور اذواق الشعب ، ان يسمو بمطالبهم الى اعلى فاعلى ، أن يزيـد في ثروتهم بالافكار الجديدة ، ويقودهم الى أمام . فمن عجز ان يماشي الشعب او يرضي حاجاتهم المتعاظمة ، من عجز ان يقوم بواجب تنمية الثقافة السوفياتية ، فانه ـ لا مناص ـ واجد نفسه يوماً وقد تم الاستغناء عنه .

ان القصور الذي ابدته في حقل المبادىء الفكرية قيادة العاملين في جريدتي « زفيزدا » و « لننغراد » قد استتبع كذلك خطأ آخر خطيراً .

ان بعض قادتنا العاملين على جبهة الفكر قد انزلوا علاقاتهم بشتى المؤلفـين ـ انزلوا المصالح الشخصية ، مصالح الصداقة ـ منزلة فوق مصلحة التربية السياسية ، للشعب السوفياتي وفوق اعتبار الاتجاه السياسي الذي ينزع اليـه هؤلاء المؤلفون . فيقال ان كثرة من

المؤلفات المؤذية فكراً ، الواهنة أدباً ، انما اتيح لها النشر لان رئيس التحرير لا يود ان يمس احساسات المؤلف . وعلى هذا يكون في نظر هؤلاء العاملين على جبهة الفكر افضل ان نضحي مصالح الشعب ، مصالح الدولة ، من ان نمس احساسات مؤلف ما . انه لمبدأ على الاطلاق خطأ . مبدأ على الاطلاق خطأ من الناحية السياسية . وما مثل هذا المبدأ الا مقايضة مليون روبل بكوبيك .

تشير اللجنة المركزية في قرارها الى الاذى العظيم الذي ينطوي عليه احلال العلاقات المؤسسة على الصداقة الشخصية محل العلاقات المؤسسة على المبدأ . ان العلاقات غير المقيدة بمبدأ — علاقات الصداقة الشخصية ، السائدة بين بعض رجال الادب عندنا — قد قامت بدور سلبي بالغ . جرت الى خفض المستوى الفكري في كثرة من المؤلفات الادبية ، كما سهلت على غرباء عن الأدب السوفياتي أن يلجوا ساحاته . لقد غاب عن قادة جبهة الفكر في لننغراد ، وعن محرري الجرائد اللننغرادية وجوب النقد فأدى الأمر الى ضرر عظيم : حلت علاقات الصداقة الشخصية محل العلاقات المؤسسة

على المبدأ ، وذلك على حساب مصالح الشعب .

يعلمنا الرفيق ستالين اننا اذا شئنا ان نصون موارد غنانا البشرية ، اذا شئنا ان نرشد الشعب ونعلمه فيجب ان لا نخشى مس احساسات الافراد ، يجب ان لا نخشى النقد الجريء الصريح الوضعي المؤسس على المبدأ . كل منظمة ، بما فيها المنظمات الادبية ، جديرة بان تنحطّ اذا فرغت من النقد . كل علة اذا انعدم النقد قمينة بان تزداد جذورها عمقاً فتصبح عندئذ اشق على المعالجة . انما النقد الجريء الصريح وحده كفيل بان يعين شعبنا على الاصلاح من نفسه ، وان يلهمه السير الى امام والانتصار على نقائص عمله . فحيثما اعوز النقد ، تأصلت جذور الاستنقاع والجمود وسدت كل سبيل على التقدم .

مراراً اشار الرفيق ستالين الى أن شرطاً من أهم شروط تقدمنا ان يعمد كل مواطن سوفياتي يوماً فيوماً الى تلخيص اعماله ومحاسبة نفسه حساباً لا خشية فيه وتحليل عمله تحليلاً جريئاً ونقد قصوره وخطأه ، ابداً مفكراً كيف يحرز نتائج اجود وكيف يصلح من نفسه . وان هذا لمما ينطبق على رجال الادب انطباقه على

غيرهم من العاملين سواء بسواء . فمن يخشى نقد عمله فليس سوى جبان حقير ، أقل من ان يحظى باحترام الشعب .

ان وضعاً ينعدم معه النقد ، وضعاً ينزل صلات الصداقة الشخصية منزلة الصلات المؤسسة على المبدأ ، لمنتشر انتشاراً واسعاً في لجنة اتحاد الكتاب السوفيات . واللجنة هذه — اتحاد الكتاب — ولاسيما رئيسها الرفيق تيخونوف ، موضوع لوم فيما يتعلق بالحالة السيئة التي انكشف عنها الأمر في جريدتي «زفيزدا» و « لننغراد » . هم ملومون لأنهم لم يبذلوا جهداً ما لمنع النفوذ المؤذي ـ نفوذ زوتشنكو واخماتوفا وسائر الكتاب اللاسوفيات ـ ان يتغلغل في الادب السوفياتي . ليس ذلك وحسب ، بل هم قد اتاحوا اتاحة واسعة للأساليب والنزعات الغريبة عن الادب السوفياتي ان تجد لها مكاناً في جرائدنا .

ومن العوامل الاخرى التي زادت في نقائص الجرائد اللننغرادية ما نشأ من نظام عادم المسؤولية بين محرري هذه الجرائد ، بحيث اصبح لا يعلم احد من المسؤول عن الجريدة كلها ، ثم من المسؤول عن مختلف فروعها . وغني عن البيان ان حالة مثل هذه يستحيل معها ان يبقى

اثر لأبسط مباديء الترتيب . ومن هنا نصبت اللجنة المركزية في قرارها رئيس تحرير لجريدة « زفيزدا » يكون هو المسؤول عن اتجاه الجريدة وعن الصفة الرفيعة التي يجب ان تتحلى بها المؤلفات المنشورة فيها ادباً وفكراً .

يجب ان لا يؤذن بالتشويش والفوضى في اصدار المطبوعات الادبية . حكم المطبوعات الادبية في هذا الباب حكم غيرها من المشاريع سواء بسواء . يجب تثبيت مسؤولية محددة فيما يتعلق باتجاه الجريدة والمادة المنشورة فيها .

علينا ان نعيد التقاليد المجيدة التي كانت لادب لننغراد وجبهة لننغراد الفكرية . فلشد ما هو محزن ان نعترف ان جرائد لننغراد التي ايدت دائماً اوفى الافكار نصيباً من التقدم قد صار بها الامر الى ان تحضن الفراغ والابتذال . علينا ان نعيد شرف لننغراد باعتبارها وسطاً فكرياً ثقافياً يجيء في الطليعة . علينا ان نذكر ان لننغراد كانت مهد المؤسسات البلشفية اللينينية . فهنا وضع لينين وستالين قواعد الحزب البلشفي ، قواعد وجهة النظر البلشفية الى العالم ، قواعد الثقافة البلشفية .

انها قضية شرف على كتاب لننغراد ، واعضاء الحزب

في لننغراد ، ان يعيدوا هذه التقاليد المجيدة ويستطردوا في تنميتها . ان لزاماً في عنق العاملين على جبهة الفكر في لننغراد – الكتاب بالدرجة الاولى – ان يرذلوا الفراغ والابتذال من ادب لننغراد ويرفعوا عالياً لواء الادب السوفياتي ويفيدوا من كل مناسبة للنمو فكراً وادباً ، وان لا يتركوا مواضيع عصرية الا عالجوها ولا يتسكعوا متخلفين وراء مطالب الشعب . اجل ، لزام في عنق هؤلاء ان يعززوا في كل الوجوه النقد الجريء لنقائصهم ، ذلك النقد الذي لا اثر فيه لنقنقة ضفدعية ، ذلك النقد البلشفي فكراً ، النقد الحقيقي الجسور المستقل ، لا النقد المبني على الولاء للفئات والصداقات .

ايها الرفاق :

لا بد ان يكون اتضح لكم الساعة مدى التقدير السيء الذي تورطت فيه لجنة الحزب في مدينة لننغراد ، لا سيما فرع النشر فيها ، وامين سر هذا الفرع الرفيق شيروكوف الذي اقيم على رأس العمل الفكري ، فهو يحمل القسط الاوفى من تبعة الاخفاق والحبوط الذي اصاب

الجريدتين .

ان لجنة الحزب اللننغرادية ارتكبت خطأ سياسياً خطيراً اذ اقرت في اواخر حزيران قرارها المخصوص بهيئة التحرير الجديدة لـ « زفيزدا » مع وجود زوتشنكو في هذه الهيئة . ان موافقة الرفيق كابوستين امين لجنة الحزب في المدينة ، وموافقة الرفيق شيروكوف امين لجنة النشر في المدينة ، على مثل هذا القرار الضال ، شأن يستحيل تعليله الا بالعمى السياسي . اقول واعيد القول ان هذه الاخطاء كلها يجب اصلاحها باعجل ما يمكن اصلاحاً حازماً جازماً ، كيما تستعيد لننغراد قدرتها على استئناف مساهمتها في حياة حزبنا الفكرية .

كلنا يحب لننغراد . يحب منظمتنا الحزبية اللننغرادية على اعتبارها فصيلة من فصائل الطليعة في حزبنا . يجب ان لا يكون في لننغراد مستظل يستظل به مغامرون ادبيون شتى يريدون تسخير لننغراد لغاياتهم الخاصة . لننغراد السوفياتية ليست عزيزة غالية لا على زوتشنكو ولا على اخماتوفا واشباههما . يود هؤلاء ان يروا نظما اجتماعية وسياسية اخرى ، كما يودون ان يروا افكاراً اخرى تخندق في لننغراد . ان سان بطرسبورج

القديمة ورمزها الفارس البرونزي — تلك هي الرؤيا التي تخلب ابصارهم . أما نحن فعلى عكس ، نحب لننغراد السوفياتية . ان الموكب المجيـــد ، موكب الاعلام الثوريين والديموقراطيين العظام الذي انجبتهم لننغراد هو الذي يمثـل الاسلاف الذين تحدرنا منهم رأساً . والتقاليد المجيدة التي تتحلى بها لننغراد الحديثة انما هي استئناف لتلك التقاليد الديموقراطية الثورية العظيمة ، تقاليد لا نرضى عنها بديلا شيئاً آخر من اشياء الدنيا . فلينظر اذن اعضاء الحزب في لننغراد الى اغلاطهم نظر تحليل جريء ، دونمـا التفات الى وراء ، او « تمشية حال » . ذلك كي يقوّموا من عوج الامور على اسرع الوجوه المستطاعة وافضلها ، وكي يدفعـوا الى امام بعملنا الفكري . حتم على بلاشفة لننغراد ان يستعيدوا مركزهم بين المبادهين والقادة المرشدين في صوغ الذهنية السوفياتية وسبك الضمير الاجتماعي السوفياتي .

كيف حدث ان استطاعت لجنة الحزب في لننغراد ان تتساهل بوضع مثل هذا الوضع على جبهتنا الفكرية ؟ من الواضح انها انهمكت في الواجبات العملية لتعمير المدينة وتطوير صناعتها ، ونسيت اهمية العمل الفكري

التهذيبي . فكلف هذا النسيان منظمة لننغراد غالياً . ان العمل الفكري يجب ان لا يقع ابداً ضحية النسيان . ثروة شعبنا الروحية ليست اقل اهميـة من ثروته في المواد . لسنا نستطيع ان نعيش عميا لا نعير الغد فكراً . تلك قاعدة لا تصح ، وحسب ، في حقـل الانتاج المادي ، لكنها صواب ايضاً في حقل العقل . لقد بلغ شعبنا مبلغاً من النمو بحيث يأبى ان « يزدرد » كل نتاج روحي ايا كان ، يلقى به اليه . فالعملة في حقل الفكر والثقافـة ، اولئك الذين منهم لا يغيرون مـا بانفسهم ولا يقدرون ان يلبوا حاجات الشعب النامية سرعان ما يتعرضون لخسارة ثقة الشعب .

أيها الرفاق ، يحيا ادبنا السوفيـاتي وينبغي له ان يحيا ، وحسب ، في مصالح الشعب ، مصالح وطننا . الأدب شأن لصيق بالشعب عزيز عليه . ومن هنا كان الشعب يعتبر نصراً خاصاً له كل نجاح نحرزه في كل عمل ادبي ذي خطر . لذلك يمكننا ان نقارن كل مؤلف ناجح بمعركة نظفر فيها ، او بفـوز عظيم على الجبهة الاقتصادية . وبالعكس ، كل خيبة يمنى بهـا الادب السوفياتي توجع الشعب وتحزه عميقـاً ، وتؤلم الحزب

والدولة . وهذا ما جعلته اللجنة المركزية نصب ذهنها حين اتخذت قرارها ، لان اللجنة المركزية مركلة بمصالح الشعب ، بمصالح ادب الشعب ، وهي الى ذلك معنيّة حتى اقصى حد بحالة الامور الراهنة بين كتاب لننغراد .

ان اناساً لم يتخذوا لهم موقفاً فكريا ما ، يريدون ان يقوضوا الاسس التي تسير عليها فصيلة العمَلة السوفيات في حقل الادب في لننغراد ، يريدون ان يفسدوا الصفة الفكرية في اعمال هـذه الفصيلة ، فيسلخوا عن مؤلفات الكتاب اللننغراديين قيمتها من حيث هي وسيلة لاحداث الاصلاح الاجتماعي . لكن برغم ذلك ، ان اللجنة المركزية لعلى ثقة من ان رجال الادب اللننغراديين سيجدون من انفسهم القوة لوقف كل المساعي لتحويل فصيلة لننغراد الادبية وجرائدها الى ناحيـة منحرفة ، ناحية تيار الابتذال والفقر في المبدأ والنقص في الذهنية السياسية . انكم مجعولون في مركز هو على خط المقدمة في الجبهة الفكرية . وان مهام عظيمة ذات مغزى امي تواجهكم . وهذا ما يجب ان يرهف في كل كاتب سوفياتي حق ، حس المسؤولية عنده تجاه شعبه ودولته وحزبه ، كما يجب ان يسنن شعوره بخطورة الواجب الذي يقوم به .

ان العالم البورجوازي لا يحب. ما نظفر به من فوز لا في بلادنا ولا في الميدان الدولي .

عقبى الحرب العالمية الثانية قوي مركز الاشتراكية . لقد وضعت قضية الاشتراكية على جدول الأعمال في بلاد اوروبية كثيرة . وهذا ما يغيظ الاستعماريين من كل ظل . انهم جميعاً يخشون الاشتراكية ، يخشون وطننا الاشتراكي الذي هو اسوة لجميع البشرية التقدمية . يحاول الاستعماريون وخدمهم الفكريون وكتابهم وصحافيوهم وساستهم وديبلوماسيوهم ان يشنعوا على وطننا بكل طريقة مستطاعة . وأن يعرضوه معرض الخطأ ويفتروا على الاشتراكية . وفي هذه الظروف ، لا يقتصر واجب الادب السوفياتي على كيل الصاع بالصاع ازاء هذا التشنيع اللئيم وهذه الهجمات على ثقافتنا السوفياتية ، على الاشتراكية ، بل انما يتعدى ذلك الى ضرورة مهاجمة الثقافة البورجوازية — وهي في حالة الانحطاط والتفسخ — مهاجمة جريئة .

ليكن ما شاء ان يكون جميلاً المظهر الخارجي الذي به تظهر مؤلفات الكتاب البورجوازيين المحدثين المتأنقين في غرب اوروبا وفي اميركا . كذلك فلتكن

هناك اعمال مديري المسارح واشرطة السينما . انهم لن يستطيعوا ان ينقذوا ، او ان يصلحوا ثقافتهم البورجوازية لان اساسها الخلقي فاسد وعلى انحطاط . فانما وضعت هذه الثقافة في خدمة التملك الرأسمالي الخاص ، في خدمة المصالح الذاتية الانانية لدى الحلقة البورجوازية في ذروة المجتمع . ان جمهرة من الكتاب البورجوازيين ومديري المسارح واشرطة السينما لجاهدون في ان يحولوا انتباه الاوساط التقدمية في المجتمع عن المعاضل الحادة – معاضل الصراع السياسي الاجتماعي – شطر تيار أدب وفن خاويين مبتذلين يعالجان مواضيع الغانغستر والممثلات ويمجدان العهّار ومغامرات المقامرين والسفلة .

فهل يليق بنا نحن الوطنيين السوفيات ، ممثلي الثقافة السوفياتية المتقدمة ، ان نقوم بدور المعجبين بالثقافة البورجوازية او بدور التلاميذ لها ؟ ليس يحتاج الى بيان ان ادبنا الذي يمثل نظاماً أسمى مرتبة من كل نظام بورجوازي ديموقراطي آخر ، كما يمثل ثقافة ارقى مراراً من الثقافة البورجوازية ، له وحده الحق ان يعلم الآخرين الأخلاق العالمية الجديدة . اين يتسنى لكم ان تجدوا شعباً آخر كشعبنا او وطناً اخر كوطننا ؟ اين

يتأتى لكم ان تجدوا صفات انسانية رائعة كهذه الصفات التي ابداها شعبنا السوفياتي في الحرب الوطنية العظمى ، ويبديها الآن كل يوم في كده لتحويل اقتصادنا شطر التطور السلمي والتعمير المادي والثقافي ؟ ان شعبنا ليتسنم كل يوم الى اعلى فاعلى . فلسنا اليوم ما كنا امس ، ولن نكون غداً ما نحن اليوم . لقد اصبحنا غير الروس الذين كانوا عام ١٩١٧ ، وصارت لنا روسيا غير تلك ، وبدلنا خلقنا تبديلاً . لقد تغيرنا ونمونا مع هذه الشوؤن العظيمة التي حورت كيان وطننا تحويراً في الأساس .

فتبيان هذه المزايا الجديدة العظيمة — مزايا الشعب السوفياتي — وجلاء صورة قومنا غير مكتفين براهن حالتهم اليوم — اذ لا بد من مد النظر الى مستقبلهم وبذل المعونة في اضاءة الطريق الى امام — ذلك هو واجب كل كاتب سوفياتي ذي ضمير .

ليس للكاتب ان يمشي الهوينى متسكعاً وراء الاحداث . عليه ان يمشي في مقدمة صفوف الشعب وان يدل الشعب على طريق تطوره . يهتدي الكاتب بهدى اسلوب الواقعية الاشتراكية ، يعنى بدرس حياتنا دراسة نزيهة

من صميم القلب ، يجتهد ان يسبر بمسبار الفهم العميق اغوار مجاري تطورنا ، وبذلك كله ، وفي الوقت نفسه ، يهذب الكاتب الشعب على ما هو واجبه ويسلحه بسلاح الفكر . وفي الآن الذي يقع فيه اختيارنا على اسمى احاسيس البشر السوفياتي واجود صفاته ، في الآن الذي نجلو فيه لهذا البشر مستقبله ، ينبغي لنا كذلك ان نري شعبنا كيف لا يصح ان يكون . ينبغي لنا ان نشجب شجباً لا هوادة فيه بقايا من العهد الماضي ما زالت حية ، تلك البقايا التي تعوق تطور شعبنا السوفياتي . على الكتاب السوفيات ان يعينوا الشعب والدولة والحزب على تعليم ناشئتنا كيما تكون لنا شبيبة مفعمة تفاؤلاً ، مفعمة ثقة بقوتها ، تتحدى الصعاب .

ليجهد ساسة البورجوازية وكتابها ما شاء لهم الجهد ان يخفوا حقيقة ابداعات النظام السوفياتي والثقافة السوفياتية . ليجهدوا ما شاء لهم الجهد ان ينصبوا ستاراً حديدياً يحاولون به منع حقيقة الاتحاد السوفياتي ان تنفذ الى خارج . اجل ليجهدوا ما شاء لهم الجهد في تصغير شأن النمو الذي نمته الثقافة السوفياتية وفي الازراء برحابة الافق الذي اصبحت تطل عليه هذه

الثقافة ، فان جهودهم كلها مقضي عليها بالخيبة . نحن نعلم حق العلم قوة ثقافتنا وميزاتها . حسبنا هنا ان نومىء الى النجاح العظيم الذي فازت به بعثاتنا الثقافية في الخارج . حسبنا ان نشير الى التوفيق في استعراضاتنا الرياضية ، الخ ... فليس لنا نحن ان ننحني لدى كل شيء اجنبي ، أو نتخذ موقفاً سلبياً للدفاع .

لئن كان النظام الاقطاعي ، ثم النظام البورجوازي عصر ازدهارهما ، استطاعا خلق فن وأدب عززا انشاء النظام الجديد وانشدا أماديحه ، فنحن — نحن الذين يؤلفون نظاماً اشتراكياً جديداً يمثل الصيغة التي تستوعب خير ما في تاريخ الحضارة والثقافة البشرية — اعظم كفاءة بما لا يقاس لابداع ارقى ادب في الدنيا يسبق سبقاً بعيداً اروع نماذج الادب في سوالف الازمان .

أيها الرفاق ، ماذا تلتمس اللجنة المركزية وماذا تريد ؟ تريد لجنة الحزب المركزية من اعضاء الحزب في لننغراد ، ومن كتاب لننغراد ، ان يدركوا حق الادراك ان قد ازف وقت اصبح فيه ضرورياً ان ننهض بمسعانا الفكري الى مستوى رفيع . ان الجيل السوفياتي الناشيء مدعو الى تعزيز متانة النظام السوفياتي

وطاقته ، مدعـو الى الانتفاع بقوى المجتمع السوفياتي الفاعلة في سبيل زيادة رقينا المادي والثقافي . وكيما يتمكن الجيل الناشيء من انفاذ هذه الواجبات العظيمة ، فلا بد من تربيته على ان يكون مقداماً بهجاً غير هياب لدى الصعاب يواجهها ويحشد عزماً للظفر عليها .

ينبغي لشعبنا ان يكون مثقفاً تثقيفاً عاليـاً ، ذا مباديء سامية ، تتملكه حاجات واذواق ثقافية واخلاقية رفيعة . وحرصاً على هذه الغاية ، واجب ان لا يقف ادبنا وصحفنا بمعزل عن مهام اليوم . واجب ان يساعد ادبنا وصحفنا الحزب والشعب على تربية ناشئتنا في روح التضحية العظمى للنظام السوفياتي ، روح الخدمة القصوى لمصالح الشعب .

الكتاب السوفيات وجميع العاملين منا على الجبهة الفكرية يقفون اليوم في مقدمة صف النضال . ذلك ان مهام الجبهة الفكرية — الآداب بالدرجة الاولى — لا يهون شأنها في ظروف التطور السلمي ، بل على العكس يزداد وزنها وخطرها . لا يشاء الشعب ولا الدولة ولا الحزب تنحية الادب عن المشاكل الحديثة ، بل انما يشاؤون ان يحيط الادب بالحياة السوفياتيـة في كل

وجوهها . ان البلاشفة ليقدرون الأدب حق قـدره . انهم ليدركون ادراكاً جلياً رسالته التاريخية العظيمة في توثيق وحدة الشعب خلقاً وسياسة ، في تمتين صفوف الشعب وتعليمه . تريدنا لجنة الحزب المركزية ان نطعم الروح البشرية طعاماً بسخاء ، لأن لجنتنا المركزية ترى في حيازة الثروة الثقافية واجبـاً رئيسياً من واجبات الاشتراكية .

توقن لجنة الحزب المركزية ان الفصيلة اللننغرادية في موكب الادب السوفياتي صحيحة السياسة ، معافاة الخلق، بحيث تصلح اخطاءها في اسراع وتحتل المكان اللائق في صفوف الادب السوفياتي .

لا يخامر اللجنة المركزية ريب ان النقص في عمل كتاب لننغراد لا بد ان يُتلافى ، وان النشاط الفكري الذي تبذله منظمة الحزب اللننغرادية سينهض في اجل وجيز جداً الى المستوى المراد اليوم كما تقضي مصالح الحزب والشعب والدولة .

الثمن ٧٥ قرشاً